الدكتور عماد الدين الخليل

الإعصار والمئذنة



الإعصار والمئذنة

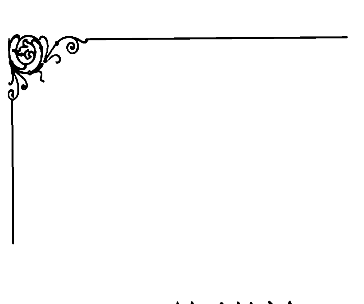
رواية إسلامية معاصرة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الإعصار والمئذنة
رواية إسلامية معاصرة

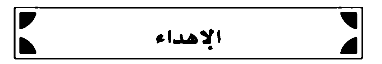
الدكتور

عماد الدين خليل




بسم الله الرحمن الرحيم





الإهداء

بعد مرور ربع قرن على ثورة الموصل..

وفاء لمدينتي؛ التي أحببتها إلى درجة العشق.

١

كان يرى في عينيها السوداويين جنته الأرضية.. هنا، يموت الإنسان من العشق الجميل، هنا، يمكن أن يفجر الإنسان ويغدو شيطاناً، ويمكن أن يطير إلى السماء السابعة، فيتعلم كيف يخاطب الملائكة..

وكلما جلس إليها، يستمع إلى همسها الخجول، ما كان هو يحكي لها شيئاً، ما كان يقول أية كلمة؛ لأن لسانه ـ وقد ارتاح إلى الصمت ـ ترك في الأغوار، ألف كلمة لا تحتاج إلى شفاه..

ما الذي كان يقوله وهو ينظر إلى عينيها محدقاً حيناً، مطرقاً حيناً آخر؟ لا أحد يعرف.. أبداً.. فالناس يتعاملون مع الآخرين من الخارج، ويفهمونهم من الخارج.. وينشئون معهم العلائق والصلات من الخارج أيضاً.. أما ما يحدث في الداخل ـ حيث يتشكل الإنسان ـ فلا تمتد إليه عين.. من منا حاول أن يجتاز الجدار المنظور إلى هناك، لكي يعاين عملية التشكل تلك؟

الذين قدروا على هذا الاجتياز الصعب، استطاعوا حقاً أن يفهموا الآخرين، وأن يقيموا معهم صلات عميقة وحقيقية، أن يحكوا عنهم بالصدق المرتجى، ولكن ـ مرة أخرى ـ من منا قدر على الوصول؟

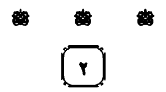
تلك هي مأساتنا مع الآخرين، ما يسمونه بالحياة الاجتماعية، وقد زادتها تعقيدات العصر الحديث، فأقامت بين الناس خطوطاً متعاقبة من الأسلاك الشائكة، يموت من يحاول اختراقها للوصول إلى الآخرين.

ويقولون: إن الإنسان حيوان اجتماعي، بالطبع.. نعم، إذا كان

ذلك يعني غريزة الإنسان؛ التي تسوقه إلى الاجتماع بالآخرين والتعاطف معهم،أما التوغل في الأعماق، فلن يكون سهلاً لكل من يريد، إنه هبة الذين تمرنوا طويلاً على الغوص، وتعرضوا كثيراً للموت في الأعماق، هؤلاء هم؛ الذين يستطيعون أن يقصوا علينا تجارب الآخرين.. ما يحدث هناك فعلاً، لا ما يتخيلونه هم..

ما الذي كان يقوله عاصم الدباغ، وهو يذوب في عيني سلمى دون أن تنبس شفتاه بشيء؟

ماذا كان يدور هناك في ساحة التشكل والصيرورة؟.. ماذا؟



كان الوقت مساء، قبل دقائق فحسب، هبطت تلك اللحظات؛ التي لا تعرف في مدينة الموصل حلاً وسطاً، فهي، إما أن تقطر كآبة، وإما أن ترق وترق حتى يخيل للمرء أنه يتلقى نفحة من نسيم الجنة!!

ومنذ أسابيع، لم يعد أحد يعرف طعم المساء السعيد، لقد مالت الكفة بالاتجاه الآخر، فما هي إلا الكآبة؛ التي تتكاثف وتثقل حتى تغدو رماداً ودخاناً.

وإذ كان عاصم يتجاوز بالعشق الحلال ثقل الزمن وبؤسه، كانت سلمى أشد حساسية إزاء مايجري في المدينة، إن الهاجس؛ الذي يدق في قلبها، وتتصدى أجراسه الحزينة عند المساء، عبر هذه اللحظات بالذات، لا يمكن لصوت عاصم أن يغطي عليه، أن يمحوه.

وإذ شعر ـ ربما لأول مرة ـ أن الجسور قد تقطعت بينه وبين

خطيبته، وأنه يحكي فلا تسمع ولا تجيب، آثر أن يعتذر ويغادر الدار، ولكنه تريث قليلاً . .

ـ لابد أن أسلم على أبيك.

رفعت عينيها إليه، كان ينظر إليها بعتاب وهو يتراجع ثانية، لكي يجلس على طرف الإيوان . . أميل إلى الطول، ذو بشرة بيضاء مشربة بقليل من السمرة، شعره الكستنائي الفاقع ينسرح على جبينه بعض الشيء، كث، لكنه مصفوف بعناية، والأنف يعاني من شيء من عدم التناسق، مع عينين عسليتين مترعتين بالسكينة، وثمة شارب رقيق يعرف صاحبه كيف يجعله دائماً مشذباً مرسوماً.

وكان الرجل يعنى بهندامه، فيجاوز حد المعقول، ومن أجل مزيد من التأنق؛ الذي يستهويه، كان يؤثر ـ في بعض الأحيان ـ أن يطوي منديلاً ملوناً، فيضعه في جيب سترته العلوي، لكي يتناظر مع رباطه الأنيق، أما ياقة القميص المنشاة البيضاء، فما انحرفت زواياها يوماً عن أماكنها، ولا عرفت بقعة من عرق أو ذرة من غبار، وفضلاً عن هذا، كان يلبس ـ أحياناً ـ نظارات شمسية داكنة تمنحه بهاء أكثر . .

ولم يكن يعوزه الذكاء، ولا سرعة البديهة، ولا الخبرة الاجتماعية، وكان يعرف كيف يغازل خطيبته حيثما خلا لهما المكان، ولكن ما كان يؤذي سلمى أنه كان ـ أحياناً ـ مكتفياً بميزاته هذه، متحصناً بها عما يمكن أن يستهوي معظم الشبان في سني المصير . . اتخاذ موقف واضح إزاء الصراعات المتفجرة يوماً بعد يوم، مصعدة أبداً باتجاه اللحظة التي لن تغفر أبداً لأحد يختار أن يقف على الرصيف متفرّجاً، أو مؤثراً السلامة . .

ـ سلمى، ها قد عدت إلى اكتئابك، إنك تعذبيني لغير ما سبب!

افترت شفتاها عن ابتسامة عابرة، حاولت ـ رغماً عنها ـ أن تبعد خطوط الحزن الهادئ المرتسم على وجهها الجميل..

عيناها سوداوان ذوات بريق.. أنفها وفمها، مرسومان بمهارة فائقة.. وجهها، ممتلئ بعض الشيء.. لكن، ما يوازن هذا الامتلاء.. ما يخفف منه، هي تلك الشفافية، التي تتدفق من عينيها، فتغمر وجهها بما يكاد يجعله قصيدة تقطر حزناً!

مربوعة القامة في غير ما سمنة.. وها هنا أيضاً، يتدخل معمار الخلق الجميل، فيمد في رقبتها بعض الشيء، ويوازن القامة المربوعة بعمود من عاج بديع، والشعر يتناثر على الجبهة بغير ما نظام، ثم ما يلبث أن ينساب؛ لكي ينسدل على الأكتاف كالشلال.

ـ لشد ما أتمنى أن نبعد عن العالم، أن أطير بك إلى نهايات الدنيا القصية، لكي أعيدك ثانية إلي، وأستمتع بحضورك معي...

قالت ـ وهي تدلف إلى الصالة الداخلية ـ: لحظة واحدة، سأنادي على أبي..

ـ ولكنك أنت التي تريد!

كانت غرفة الاستقبال المستطيلة التي اعتاد الجلوس إلى خطيبته فيها، تطل على الشارع عبر نافذة تمتد على مدى جدار مقوس، يمثل تقليداً معمارياً أكثر حداثة للعديد من دور المدينة، يقابلها باتجاه الداخل، باب ذو زجاج مشجر، يفضي إلى الصالة، لكنه يحجب العين عما يجري في المكانين، وعلى مدى الجدارين الطويلين يمتد ديوانان محشوان، تقطعهما ـ على مسافات محددة ـ مساحات مسطحة من خشب الصاج، وإلى أعلى امتدت رفوف مكتبة معلقة، صفت فيها خطوط من الكتب، لم تكد تملأ من فراغها إلا قليلاً..

المصباح يتدلى من السقف بغطاء من الخزف الأبيض، كان يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال بفعل تيارات الحمل، التي تتصاعد من المدفأة النفطية الجاثمة في وسط الغرفة. .

نهض عاصم من مكانه، واقترب من المدفأة؛ لكي يتزود بشيء من الدفء، ثم ما لبث أن أشعل لفافة تبغ، وتراجع ثانية؛ لكي يستقر حيث كان قبل لحظات، كان الشتاء قد ولى، شتاء الموصل ذاك ببرده؛ الذي ينخر العظام، وأمطاره؛ التي إذا ما بدأت غزوها، فإنها لا تتوقف قبل انقضاء أيام وليال. . ومع البرد والمطر، كان يحاصر الناس زمهرير الخوف، والترقب، والقلق بانتظار يوم قد لا يكون دافئاً على أية حال.

وها هو ذا الربيع قد أطل تخترقه ـ بين الحين والحين ـ دوامات من البرد الشديد، يرغم الناس على التشبث بتقاليدهم الشتوية، ريثما يتعزز الدفء، وتهدأ الرياح الجليدية؛ التي تصفع المدينة في إعصارها، قادمة من الشمال الغربي، مغسولة بالثلج والبرد.

نهض عاصم ثانية، كان القلق هذه المرة يهيمن على ملامح وجهه، ممتزجاً بحزن غير قليل، أزاح ستار النافذة المطلة على الشارع، ووقف هناك. .

كان البيت ينتصب بلونه الأسمر، وجدرانه المبنية بالجبس والحجر، على شارع «الغزلاني» الرئيسي؛ الذي يخترق البلد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، على بعد عدة مئات من الأمتار باتجاه الجنوب، يقوم المعسكر، حيث يستقر لواء المشاة الخامس، الذي يتزعمه العقيد عبد الوهاب الشواف، وشمالاً، يمرق الشارع كالسهم صوب أقصى نقطة في المدينة حيث تقوم المستشفى، تحيط بها

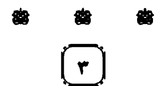
مجموعات متفرقة من الدور، وهو في رحلته هذه، يجتاز عدة دورات كبيرة لتقاطع الطرق: دورة العمري القريبة من دار عبد الرحمن والد سلمى، دورة الباب الجديد حيث ينبثق شارعان رئيسيان ينساب أحدهما (الصديق) غرباً باتجاه محطة القطار، والآخر (ذو النورين) شرقاً باتجاه قلب المدينة، باب لكش، وباب الطوب، والجسر القديم، ويظل شارع الغزلاني يصعد باسم الفاروق هذه المرة، لكن ما يلبث أن يجتاز دورة الساعة، حيث ينتصب البرج؛ الذي كانت قد أقامته بعثة فرنسية في منتصف القرن الماضي في باحة كنيسة الآباء الدومنيكان، هنالك حيث يتعامد مع الشارع، شارع كبير آخر، يخترق المدينة عرضياً هذه المرة، بين الشرق والغرب، شارع نينوى، مبتدئاً بالجسر القديم، منتهياً بمنطقة رأس الجادة؛ التي كانت في العهد الملكي منطلقاً أبدياً للتظاهرات؛ التي كانت تهز المدينة كلما ديس على عواطف الناس، وقيمهم، أو هضمت حقوقهم، ولا تزال شاخصة فيها الحفرة الغائرة؛ التي أحدثتها قنبلتان، كانت طائرة إنكليزية قد ألقتهما على حشد من أهالي البلد، كانوا يتجمعون في مقهى مطل على الساحة الكبيرة، تأديباً لمدينة كانت تعلن ولاءها الصريح للألمان، وتبغض الإنكليز حتى النخاع.

مرت سيارة جيب عسكرية باتجاه المعسكر، وتبعتها أخرى.. وقال عاصم ـ وهو لا يزال مسمراً عند الشباك محدثاً نفسه ـ: ماذا لو أقنع الزعيم بالعدول عن تفجير قنبلته المشؤومة، وإرسال «أنصار السلام» إلى الموصل؛ لاستفزاز أهاليها؟!

نظر إلى ساعته وتذكر.. بعد ساعتين أو ثلاث، سينطلق القطار الصاعد من بغداد، يحمل حشوداً من الشيوعيين «أنصار السلام»، وغداً ستتفجر المدينة المكبوتة بالصراع؛ الذي يتوقعه الجميع،

ويتوجس منه الجميع، ولن يمضي اليوم بسلام.. آه لو اقتنع الزعيم بتوسلات الشواف؛ للكف عن هذه المغامرة الملعونة..

ـ عاصم؟



انفرج الباب الداخلي عن قامة عبد الرحمن الشيخ داود، الطويلة، النحيلة، المتدثرة بروب سميك، ورغم اكتساح الشيب لشعره، فإن ملامح وجهه، لا تزال تملك الكثير من الحيوية والصرامة، لعله اكتسبها من خدمته الطويلة في الجيش، وها هو ـ الآن ـ محال على التقاعد.. بشرته سمراء مشربة بالحمرة، وتقاطيع وجهه تمنح الألفة منذ اللحظة الأولى، عينان ضيقتان ذكيتان، وفم مزموم، وذقن حليق، أما الشارب، فلا يعدو أن يكون خطاً من الشعر الأبيض الناعم؛ الذي لا يكاد يرى..

كان الرجل معروفاً بروحه المرحة، وقدرته المتفننة في طرح النكات، وكان يستطيع ـ في أشد اللحظات قسوة واكتئاباً ـ أن يشيع الابتسام، وأن يرسم بالسخرية الذكية ما تعجز الكلمات الجادة عن أن تقوله..

لكن.. منذ أن توفيت زوجته قبل أربع سنوات، أحس كما لو أن شيئاً سقط من قلبه، شرخاً عميقاً أحدثه الحزن، وكان في الأيام الأولى يقول لأصحابه: إن بمقدوره أن يدخل قبضة يده في ذلك الشرخ، وأن ليس بمقدور أحد أن يعيد قلبه كما كان، إلا أنه بمرور

الوقت، كف عن طرح هذه الملاحظة، وطوى صدره على إحساس معذب، بأن الإنسان، إذا ما فقد رفيقة عمره، فإنه يغدو ذليلاً مهيض الجناح، في نظر نفسه على الأقل..

سلمى من جهتها، كانت أقدر على تجاوز المحنة، لكن، ما كان باستطاعة قوة في العالم أن تنتزع من ملامح وجهها، خطوطاً من الحزن كانت قد استقرت هناك منذ الأيام الأولى، وهي الخطوط نفسها؛ التي أضفت على جمالها عذوبة، وشاعرية، وعمقاً..

أضاف عبد الرحمن، وهو يحرك عينيه باستنكار:

ـ تريد أن تغادر الدار قبل أن تشاركنا الفطور؟

سحب عاصم الستارة؛ لكي يغطي زجاج النافذة، وقال وهو يبتسم:

ـ إنك تعلم يا عماه أنني أعاني من متاعب في الكلية، وإن الأطباء نصحوني بالامتناع عن الصيام..

ـ أعرف.. ولكن، لا بد أن تشاركنا الطعام.. نصف ساعة أو أقل وتحين ساعة الإفطار.

قال عاصم ـ وهو يلتفت صوب الباب الداخلي منتظراً عودة سلمى ـ:

ـ ولكني على موعد!

ـ اليوم؟ الخميس؟ الذي اعتدت فيه أن تقضي عندنا الساعات الطوال؟

ـ ولكن..

سحبه من يده وأجلسه إلى جواره:

ـ لن أدعك تمضي قبل تناول الطعام.

مرت ثلاث سيارات عسكرية كبيرة، محدثة صوتاً مزعجاً، وثمة موجة خاطفة من الانقباض، سيطرت على وجه عبد الرحمن، ففقد الأريحية والرضا.. قال وهو يركز عينيه في الأرض:

ـ هذه الليلة بالذات، أشعر أكثر بالحاجة إليك.. بالحاجة إلى كل معارفي وأصدقائي.. لقد أصبحت الوحدة تفزعني، وموجات الاكتئاب تكاد تطبق علي بين لحظة وأخرى، أتمنى أن أندمج بالناس لكي أحس بالأمن..

ـ سأظل.. أجاب عاصم، إنني قبل لحظات كنت أفكر فيما يمكن أن يتمخض عنه الغد، إنهم قادمون هذه الليلة، لقد أخفقت كل المحاولات؛ لإيقاف المحاولة.

ـ أعرف هذا...

وواصل عاصم:

ـ يقال: إنهم سيرسلون أكثر من قطار؛ لكي تستوعب الحشود الكبيرة القادمة من بغداد..

وقال عبد الرحمن محدثاً نفسه: الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها..

وتساءل عاصم:

ماذا لو استجاب الزعيم لتوسلات الشواف؟

أجاب عبد الرحمن، وهو ينهض لإشعال المصباح:

ـ يستجيب؟ إنه كان مصمماً ـ منذ اللحظة الأولى ـ على تنفيذ لعبته، ومن يدري؟ فلعله يعرف جيداً ما يبيته له اللواء الخامس، ويعرف أكثر رفض المدينة ميله إلى الشيوعيين، وتفرده بالسلطان،

وهكذا، فهو يتعمد تفجير الموقف قبل أن يزداد تعقيداً ويفلت الزمام.. إنها خطة مرسومة!

ـ ولكنه تحد مخيف، فالسلطة: هي التي تدخل طرفاً فيه، حبذا لو تسكت المدينة عليه، فليس ذلك في طاقتها، إنه يسعى لضرب المواطنين ببعضهم، ليس هذا تصرف رؤساء الدول على أية حال..

أجاب عبد الرحمن وهو ينظر إلى ساعته:

ـ ذلك هو ما يسعى إليه معتقداً أنه الرابح في نهاية الأمر..

ـ بابا.

انفتح الباب مرة أخرى، وأطل وجه سلمى..

نسي عاصم همومه ومخاوفه، وتعلق بالوجه الجميل.. ماذا لو كانت الدنيا محض جمال وسكينة؟ ماذا لو ساد السلام العالم، وترك القتلة الناس ينعمون بالمحبة؟ وقال في نفسه: إنني مثلكم أيها القادمون من بغداد، أحلم بالسلام، ولكنكم، تتخذونه رداءً يخفي الخناجر والسكاكين، وأنا أريده حباً خالصاً!

أردفت سلمى:

ـ الطعام جاهز، وقد أوشكت لحظة الإفطار، لماذا لا تتحولان إلى الغرفة الأخرى؟

ـ قال عبد الرحمن وهو ينهض ملوحاً بيده، وكأنه يطرد أشباحه المقلقة هو الآخر:

ـ إنني جائع حقاً، وقد أوشك صبري أن ينفد... هيا يا عاصم، فإن الأكلات؛ التي تعدها سلمى، لاتفوت، لقد تعلمت من أمها كيف تطبخ ألذ ما عرفت به الموصل.. هيا..

وقال في نفسه: حقاً إن للصائم فرحتين، وهذه واحدة، فكيف بالأخرى؟ وقال: إنني أعشق هذه الساعة؛ التي تسبق الإفطار، إنها تحقق الصلح والوفاق بين ما يعتبره الناس نقيضين، شهوة المعدة، وأشواق الروح. .

ودخلا غرفة الطعام المتواضعة، وما لبثت سلمى أن لحقت بهما. . لحظات، ودوى صوت مدفع الإفطار، أجفل عاصم بعض الشيء، فكتم عبد الرحمن ابتسامة كادت أن تطفو على وجهه. .

ـ معذرة ـ قال عاصم ـ إن الإنسان يتوقع أن يحدث شيء ما في أية لحظة، لقد تلفت أعصاب الناس. .

أحست سلمى بشيء من عدم الارتياح، وقال عبد الرحمن:

ـ لا بأس، فقد نسمع غداً مدافع من نوع آخر، سلمى، قربي طبق الدولمة من عاصم، ولا تفوتك الكبة، فإن اليد؛ التي صاغتها بهذه الرقة، لجديرة بالإعجاب!

نظر عاصم إليها، وقال في نفسه وهو يتناول الطبق: اليد فقط؟ وكأنها أحست بما تقوله عيناه، فغمرتها موجة من الخجل زادت وجهها تألقاً، وقال عاصم:

ـ عاشت يداك! إنني أنتظر أيام الخميس بصبر نافد؛ لكي ألتهم طعامك اللذيذ. .

أجاب عبد الرحمن وهو يقطع بالسكين كبة أخرى:

ـ ولكنك تقول ما لا تفعل. . كل. . واجعل الفعل مرادفاً للقول!

ابتسم عاصم:

ـ سيكون ذلك إن شاء الله. . وماهي إلا أيام قلائل حتى تنفرد سلمى بي، وترغمني على أن أفعل ما أقول. . وإلا. .

قال عبد الرحمن وهو يتذكر شيئاً:

ـ وهل استكملت التأثيث؟ أم. .

ـ تقريباً. . لولا أن النجار أخلف موعده معي ثلاث مرات، ولكنني أخذت منه وعداً قاطعاً هذه المرة، بإنجاز عمله خلال أسبوع واحد، وسوف تصلني الأخشاب يوم الخميس القادم على أبعد الأحوال. .

كانت سلمى تجلس إلى جوار أبيها قبالة عاصم، صحيح أنها كانت معهما تشاركهما الطعام، لكنها شيئاً فشيئاً كانت تبتعد، وخلال دقائق، انفصلت كلية عن متابعة الكلام، وقالت في نفسها: إن ما يفصلها عن اليوم الموعود، اليوم؛ الذي يتحرق خطيبها شوقاً إليه، شيء أكبر بكثير من الزمن، شيء يستعصي على العد والحساب، ليست الساعات والأيام هي التي تفصلهما عن ذلك اليوم، ولكن، هناك شيء كالمصير؛ الذي تتلاشى فيه ذوات الأفراد، وتتطلع الأعناق جميعاً شاخصة مشدودة صوب يوم الفصل، إنه ليس ثمة عاصم أو سلمى أو عبد الرحمن، ولكنهم ثلاثة ضمن مئات، بل آلاف من الناس، أفلتت من أيديها مطامحها الخاصة، وهي تقف اليوم على صعيد واحد، تنتظر الكلمة وتتوقع الانفجار، وتحلم بالخلاص، أتراه يدرك ذلك؟

ـ سلمى. . ألا تحثيه على الأكل؟

قال عبد الرحمن بلهجة اللوم. . أجفلت بعض الشيء، لكنها سرعان ما تداركت الموقف:

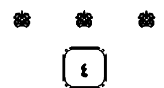
ـ إنها دارك ياعاصم، ولا أعتقد أنك بحاجة إلى تشجيع. .

أجاب وهو يرغم نفسه على تناول لقمة أخرى مداراة لعمه:

ـ بالفعل!

وسرعان ما انتابه الإحساس المبهظ، الذي حاصره لحظة جلوسه معها قبل أكثر من ساعة، إنه ليس ثمة ما يربط بينهما بما فيه الكفاية، هو يريد أن يقول لها كل شيء، وهي لا تقول إلا كلمات، هو يريد أن يتوغل بعيداً إلى الأعماق، وهي ترغمه على الوقوف عند الحافة، ماذا عساها تحس أو تريد؟ وشعر كما لو أن الغضب المكبوت يتسلل إلى عروقه. . غضب مم؟ وضد من؟ وقال في نفسه: لعنة اللّه على السلام وعلى أنصار السلام، إنهم ـ وهم في بغداد ـ يبعدونها عني، فماذا لو دخلوا الموصل؟ أية قوة في الأرض تعيدها إليّ؟!

❀ ❀ ❀



استيقظت متأخرة بعض الشيء، لم تستطع أن تنام بسهولة، كان عليها أن تصارع الأرق لعدة ساعات، وكانت تجد نفسها محاصرة بما هو ألعن من الأرق. . إحساس بالتمزق بين محبتها لخطيبها، والذهاب معه بعيداً إلى أحضان الأمن والسكينة، وبين إشفاقها على المدينة؛ التي يطبق عليها الحصار. . المدينة؟ بكل تأكيد، فلو أن عاصماً يتجاوز ـ قليلاً ـ إحساسه الذاتي، ينفتح قليلاً على معاناة الأهل والناس. . لعرفت كيف تكون سعيدة حقاً. . هنالك حيث تتوحد المحبة بالقضية، وحيث يصير الغرام دفاعاً عن حرمات الله. . آه لو أن عاصماً كان واحداً

من هؤلاء الذين يقفون اليوم على التخوم، يحملون خناجرهم ورشاشاتهم مستجيبين لنداء اللحظة التاريخية، لتحدي القادمين من بغداد. .

هرعت إلى غرفة أبيها، فوجدته ـ كالعادة ـ قد غادرها منذ زمن، وها هو الآن يجلس في غرفة الاستقبال، يتلو بصوت هادئ مؤثر ما تيسر من كتاب الله.

أومأت إليه بتحية الصباح، فاكتفى بأن يجيبها بابتسامة خفيفة، وما لبث أن عاد إلى تلاوته، ووجدت نفسها تخطو إلى النافذة، كان النهار مشرقاً جميلاً، وكانت السماء زرقاء صافية كالبلّور، لا تغطي عليها ولا قطعة من سحاب، وعلى مدى البصر، عبر شارع الغزلاني الطويل، المتعرج، كانت الأرض المكشوفة تمتد وتنبسط واعدة بربيع سخي، فرغم أن آذار لم يتوغل بعد ـ رغم أنه يحبو في أيامه الأولى ـ إلا أن العشب المغسول، كان قد ارتفع بما فيه الكفاية، وكانت تدغدغه هنا وهناك أزهار الموصل البرية؛ التي كانت وفية دائماً للأرض والبلد، النفل ذو الألوان البيضاء والصفراء والأرجوانية ذات العطر الشذى. . الصفّير؛ الذي آل على نفسه، ألا يدع الحنطة تنمو لوحدها، وأن يكون معها دوماً. . حليب البزون الأبيض الكثيف؛ الذي يحلو له أن يحتل مساحات واسعة خاصة ما بين الخضرة الواعدة. . البيبون؛ الذي تكاد تنفرد به براري المدينة، والذي اتخذه القدماء رمزاً بتاجه ذي الوريقات الناصعة البياض، تحيط بالقرص الأصفر؛ الذي لا يكاد يكف عن بث رائحته الهادئة العذبة. . وهو ـ لسخائه ـ لا يكتفي بتطريز الأرض الموصلية، ولكنه، يتجاوز ذلك

لتطبيب المرضى وعلاج المتألمين، فما من علة إلا ويكاد يكون علاجها البيبون المغلي بالماء، بعد نشره وتجفيفه. . وبما أن الأرض الموازية للشارع، صخرية التكوين، فإن ثمة ما هو أجمل من هذا كله، يعين على تلوين الأرض ومنحها غنى لونياً أشد إثارة وعذوبة، شقائق النعمان المحمولة على سوقها النحيفة وهي تقطر دماً!!

على يسار الشارع، في المدى بين البيت والمعسكر، كانت الأرض ترتفع بشكل مفاجئ، لكي ما تلبث أن تتحول إلى تل شديد الانحدار، يطل على سهوب المدينة الشرقية إلى قريب من النهر، وكان يدعى (تل الذهب). .

هل حدث أن اكتشف معدن الذهب يوماً في تربته الخصبة؟ أم أن تكسر أشعة الشمس الغاربة على صخوره الناتئة، يجعلها تبدو من بعيد كما لو كانت كتلال من الذهب؟ لا أحد يدري. . ولكن؛ الذي تعرفه سلمى جيداً أن أهالي الموصل ـ القريبين من المنطقة ـ يصعدون إليه في كل ربيع ـ خلال الأمسيات الدافئة ـ حاملين معهم متاعهم، ولعبهم وأطفالهم، لكي يقضوا هناك عدة ساعات، الأطفال يلعبون ويركضون، النساء يأكلن ويثرثرن ويضحكن، ويدارين الشاي كيلا تستفزه النار، فيغضب ويفور، ويقذف بمراراته، الشباب يتجولون هنا وهناك مسترقين النظرات إلى هذه الفتاة أو تلك. . والرجال يفترشون حافة التل، ويملؤون جوارحهم بالمنظر الجميل المترع غبطة و إثارة. .

أيضاً.أيضاً. . كان الإنكليز قد أقاموا يوماً معسكراً. . إنهم يعرفون جيداً كيف ينتقون الأماكن الجميلة في كل بلد؛ لكي يستأثروا بها. . ولا يزال الشبان يذكرون كيف أنهم ـ قبل عشر سنين لا أكثر ـ كانوا يمرون من هناك، فإذا الأسلاك الشائكة تحيط بالمكان، وإذا

الجنود الإنكليز ـ فيما وراءها ـ يلعبون كرة القدم أو الكولف، وكيف أنهم كانوا يتمنون لو تكون هذه الساحات الخضراء المنسقة لهم؛ لكي يلعبوا هم بدلاً من هؤلاء الغرباء، أليست أرضهم ومدينتهم، ويذكر الكبار أيضاً أنه ما من شيء كان يثير حقدهم على الإنكليز وكراهيتهم لهم، كمشهد استمتاعهم ذاك في ساحات وروابي تل الذهب المترعة خضرة وعطاء. .

سلمى ـ من جهتها ـ تذكر جيداً، كيف أنها في السنوات؛ التي سبقت وفاة والدتها، كانت تخرج بين يوم وآخر إلى تل الذهب بصحبة والدتها وحشد من القريبات والأقرباء، وكيف أنها كانت تقضي هناك أجمل ساعات العمر.

ومنذ أيام، وتل الذهب يتحفز لاستقبال أصدقائه وصديقاته، لقد بدأ موسمه الدوري. . وأخذت نباتات الخباز البري والفجيلة وخس الشيطان والحوّيك، تتسلق بسرعة مدهشة الحافة الحادة للتل، فتهيمن عليها، ثم ما تلبث أن ترفع رؤوسها، وتندفع باتجاه التل نفسه ملوحة بأذرعها البضة، وأكفها الخضراء المسننة المغطاة بالزغب. . ها هو تل الذهب ينفسح الآن على مداه؛ للمتنزهين وعشاق الخضرة، فلا أسلاك شائكة، ولا ساحات مسجية. . ولا إنكليز. . ولكن، لا أحد يلبي الدعوة المفتوحة. .

ماذا دهى الموصل؟ ولماذا لم تستجب كعادتها لنداء الربيع الأبدي؟

مرت سيارتا نقل عسكريتان مكتظتان بالجنود، واتجهتا شمالاً صوب مركز المدينة، أعقبتهما سيارة جيب تقل أربعة من الضباط

الشباب وهم يحملون غداراتهم، كما لو أنهم كانوا متأهبين لشيء. . وتذكرت سلمى. . وتساءلت: في الأمر ما يدعو إلى القلق. . وتساءلت: ترى، ماذا حل بقطار السلام؟ ليس ثمة ما يمنع قدومه إلا معجزة تنزل من السماء، وقالت في نفسها: إنني أعرف أبناء مدينتي جيداً، ولكن، هل ثمة من تكافؤ في القوى؟!

ـ أبي. .

رفع عبد الرحمن عينيه عن كتاب الله، ثم ما لبث أن وضع ورقة صغيرة بيضاء عند الصفحة؛ التي توقف عندها، وأغلق الكتاب. . وكأنه كان يدرك ما يعتمل في نفس ابنته، إذ أنه سرعان ما قال لها:

ـ لا بأس، سوف أغادر الدار بعد ساعة أو أقل، لأداء صلاة الجمعة في جامع الشيخ عجيل، وسأعرف هناك ما الذي يجري في البلد. . إن القلق يتآكلني يا سلمى، وقد وجدت في كتاب اللّه عزائي. . في لحظات كهذه، يعرف المرء كيف يكون القرآن شفاء لما في الصدور. .

قالت سلمى بتصميم:

ـ سآتي معك. .

ـ ولكن.

ـ هذه المرة، ليست المرة الأولى؛ التي أصلي فيها الجمعة في مسجد جامع. .

قال عبد الرحمن بإشفاق:

ـ هذا اليوم. . لا. .

أجابت سلمى بنبرة متوسلة:

ـ لست طفلة يا أبي، وسأعرف كيف أتصرف، ثم إن لي حشداً من المعارف والقريبات، سيصلين معي، إنهن جميعاً ينتظرن، ولا ريب ما ستكشف عنه الساعات القادمة، وليس ثمة غير هاشم عبد السلام ما يمنحنا اليقين والاطمئنان، ويبعث في نفوسنا القدرة على المجابهة..

قال عبد الرحمن وهو يبتسم:

ـ أنتن؟!

ـ ولم لا؟

كان عبد الرحمن يدرك أن ليس في جعبته مبرر مقنع للرفض، ولكنه، حرص الأبوة يتشبث بكل الأسباب؛ لحماية الذرية من الأخطار..

ـ ستأتين معي في الجمعة القادمة بإذن الله.. أما اليوم، فلا..

عادت إلى توسلها مرة أخرى:

ـ ما من يوم تتحتم فيه الصلاة في المسجد كهذا اليوم، فلا تحرمني الفرصة؛ التي أبل فيها غليلي..

أراد الرجل أن يواصل مقاومته، لكن جرس الباب أسكته، و قال لابنته:

ـ لا، سأخرج أنا..

اجتاز درجات السلم الأربع؛ التي تفصل الشرفة عن الباب الخارجي وهو ينادي:

ـ من؟

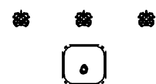
قال عاصم وهو يمد عنقه؛ لكي يراه عمه من وراء الباب:

ـ أنا!

ـ عاصم؟

فتح الباب وهو يمد ذراعه صوب المدينة.

ـ في الوقت المناسب تماماً.. إنني متحرق شوقاً لمعرفة ما يجري هناك..



دلفا إلى غرفة الاستقبال. كانت سلمى لا تزال واقفة هناك.. سلم عليها عاصم بصوت لا يخلو من اضطراب، وقال عبد الرحمن:

ـ هيا، قل ما عندك..

ـ ليس قبل أن أجلس، وأسترد أنفاسي..

وأردف وهو يحدق في سلمى، محاولاً أن يتلقى منها الإشارة:

ـ لم أر بعيني إلا أقل من القليل ـ عبر طريقي إلى هنا ـ ولكن الناس يتحدثون عن أمور خطيرة تجري في هذا البلد..

تساءل عبد الرحمن بصبر نافد:

ـ مثلاً؟

واصل عاصم وقد استرد هدوءه:

ـ ولعل معظمها لا يعدو أن يكون مجرد شائعات، إنها تنتفخ وتتورم في زمن كهذا..

قاطعه عمه:

ـ ولكن، ماذا عن أنصار السلام؟

ـ وصلوا في موعدهم المعتاد، وتدفّقوا على أرصفة المحطة كالجراد.. لم يكن قطاراً واحداً، ولكنها أربعة!!

قال عبد الرحمن، وهو يضع حواسه كلها بين يدي عاصم:

ـ هكذا؟!

وتساءلت سلمى:

ـ والضباط؟

استمر عاصم:

ـ قيل: إن بعضهم فقد السيطرة على أعصابه، وتحفز للرد، ولكنها الأوامر..

تساءل عبد الرحمن وهو يزحف؛ لكي يستقر أخيراً على حافة الإيوان:

ـ أوامر؟

ـ قيادة اللواء طلبت منهم أن يؤمنوا وصول أنصار السلام إلى هدفهم.. وألا يستفزوهم..

ـ أين؟

ـ ساحة الإدارة المحلية في شارع ابن الأثير، حيث تقرر أن يقام ـ بعد ساعة أو ساعتين ـ مهرجان كبير.. و..

قاطعته سلمى:

ـ ولكن..

والديمقراطية تشق الأجواء، وهم يهتفون بالسلام.. والديمقراطية.. وحياة الزعيم..

تساءلت سلمى وهي تتراجع لكي تجلس عند أقصى طرف في الغرفة:

ـ وأهالي المدينة؟

ـ ثمة شائعات تقول: بأنهم قد تحفزوا للرد، وأن بعضهم قد انتشر عند أسوار الموصل القديمة في منطقة باب البيض، يحملون رشاشاتهم، وأنهم قد أقسموا ألا يدعوهم يمروا..

تراجع عبد الرحمن ثانية؛ لكي يتكئ على حشوة الإيوان، وتساءل وهو يفرك مسبحته بعصبية:

ـ وموقف لواء المشاة؟

ـ لا أدري، هذا هو كل ما سمعته، إن الشوارع تكاد تكون خالية، وقال بعض من التقيت بهم: إن معظم سكان المدينة، قد انسحبوا إلى دورهم، وأغلقوا حوانيتهم في شبه احتجاج سلبي على عملية الغزو؛ التي تتم بإشراف الحكومة نفسها، وإنهم يسعون إلى مقاطعة تموين الألوف القادمة من أنحاء العراق وتجويعها وإذلالها معنوياً.. وقالوا أيضاً: بأن النساء والأطفال ساهموا في التعبير عن الاحتجاج، بأن قذفوا بعض السيارات القادمة بالحجارة والأقذار، وبنداءات التهكم والسخرية.. و لا يدري المرء مدى صحة هذا الذي يقال..

ـ لعلهم الآن يتجمعون في أماكن أخرى؟

ـ يقال: إن تظاهرة كبيرة تجتاز ـ الآن ـ شارع نينوى، متجهة إلى رأس الجادة، ويخشى أن يكون هدفها ساحة الإدارة المحلية، حيث يتجمع أنصار السلام.. قد تكون الكارثة..

تساءلت سلمى بعصبية:

ـ أية كارثة؟

أجاب عاصم:

ـ إذا وصل المتظاهرون إلى هناك، فإن المدينة ستشهد مجزرة رهيبة..

قاطعته متحدية:

ـ وهل يسمحون لهم باستباحتها؟

ـ هذا خير ـ على أية حال ـ من أن يذبح أبناء الموصل، وتستحيا نساؤها!

حاولت أن ترد، ولكنها آثرت السكوت لتلهف أبيها على السماع، والخيوط الخفية؛ التي كانت تستفزها في شخصية خطيبها، أخذت الآن تنسل من الخفاء، لكي تبدو ظاهرة للعيان، وقالت في نفسها: لا بأس!

زحف عبد الرحمن ثانية إلى حافة الإيوان؛ لكي يستوعب كل حرف يصدر عن عاصم، وقال هذا في نفسه، وقد شعر بشيء من الامتعاض لما اعتبره مجابهة غير معلنة بينه وبين خطيبته: ها هي الجسور تنقطع ثانية، وقوارب الوصل تغوص في الأعماق.. إن المدى بينهما يتسع، وهو يحس الآن بأن اطمئنانه القديم أخذ يهتز.. ويتمنى أن يصرخ طالباً منها أن تعود إليه.. ولكن، هيهات.. أيمثل دوراً غير مؤمن به؟ أيدعي ما هو غير قدير عليه؟ ما لها وما يجري في البلد؟ والريح. آتية على أية حال، وخير لها أن تأوي إلى مرافئ الحب والحنان والسكينة، من أن تجتاز البحر المرعب، لكي يفقدها ـ مرغماً ـ في النوء.. والريح.. والعاصفة!

لن يكذب، ولن يدعها تنفلت منه إلى المجهول.. وقال لعمه، وهو يكظم حزنه وغيظه:

خير للمرء أن يغادر الموصل إلى بغداد.. هذه الأيام على الأقل، فإن ما هو آت، أشد هولاً مما هو عليه الآن!

لعله أراد أن يستفزها.. أن يجعلها تقول كل ما عندها، لكي يعرف كيف يداري الموقف.. وهناك، إن كان جاداً فيما يرمي إليه، ولعله وضع ثقله إلى جانب عمه، فإذا اقتنع الرجل، ما كان لسلمى أن ترفض الذهاب معهما.. وهناك.. في بغداد، سيعرف كيف يستعيدها ثانية..

لكن سلمى قالت بوضوح:

ـ لن يكون هذا.. أنا لا أوافق عليه!

أجابها عاصم متوسلاً:

ـ لا تندفعي وراء المثاليات يا سلمى، فإن الناس إذا ما دهمهم الخطر، يجدون أنفسهم مدفوعين للبحث عن الأمان..

قاطعته سلمى:

ـ ليسوا كلهم على أية حال..

وتدخل عبد الرحمن، محاولاً أن يلطف الجو:

ـ على رسلكما، فما هي إلا وجهات نظر تقال في موقف عصيب كهذا.. وملتفت إلى ابنته:

ـ ومن قال: إننا سنغادر الموصل؟

أحست بارتياح عميق، وكأنها كسبت جانباً من المعركة، ونظرت إلى خطيبها كأنما تريد أن تقول له: وماذا بعد؟

استعاد عاصم بعض هدوئه وهو يقول:

ـ إنني معك يا عماه، فما هي إلا وجهات نظر تقال، فليس من السهولة بمكان أن يترك الإنسان بلده!

سأله عبد الرحمن وهو يخفض صوته:

ـ والشواف؟ وضباطه الأحرار؟

ـ لا أعلم عن نيّاتهم شيئاً . .

ـ طبعاً . . ولكني أريد أن أعرف ما يقال . .

ـ حتى هذه الساعة فإن اللواء ـ بضباطه وجنده ـ يسعى للحجز بين الطرفين، يبذل جهوداً متواصلة من أجل منع الالتحام . .

ـ معنى هذا، أن المهرجان سيقام، وأن أنصار السلام سيقولون كل ما عندهم، وسيكسبون التحدي . .

أجاب عاصم، وقد بدأ يحس بالملل والإعياء، معبراً عنهما بتثاؤبة طويلة:

ـ ربما!!

فمن عجب أن ينهض عبد الرحمن قائماً، ويخطو صوب النافذة، ويشير إلى جامع الشيخ عجيل؛ الذي يقوم على بعد عدة مئات من الأمتار قائلاً:

ـ ونحن أيضاً سنقول كل ما عندنا!

نظر إليه عاصم دون أن يفقه شيئاً، بينما واصل عبد الرحمن:

ـ سنصلي الجمعة هناك، وسيعرف هاشم عبد السلام كيف يرفع صوته؛ مستجيباً للتحدي . .

نهضت سلمى هي الأخرى قائلة بنبرة منفعلة:

ـ عاصم.. ألا تأتي معنا؟

فغر فاه وهو يسألها:

ـ أنت؟!



اعتذر عاصم عن الذهاب، وقفل عائداً بسيارته، وانطلق عبد الرحمن وابنته صوب الجامع.. ثمة طريق أقصر يوصل إليه، أن يجتازا الحقول الخضراء الممتدة بين شارعي الغزلاني والمطار، حيث تتبعثر مجموعات من الدور هنا وهناك، بدلاً من الالتفاف الطويل عبر الطرق المرصوفة.. وإذا اقتربا من هدفهما، شهدا حشود الناس تتجه إليه، والأصوات تتعالى متحدثة عما هو كائن، وعما سيكون.

كان المسجد قد غص بالمصلين، وكذلك الباحة الخارجية المكشوفة، فاضطر الناس إلى تحويل الأرض الخضراء المقابلة للجامع عبر الشارع، إلى مسجد كبير، وثمة عدد من الشبان المسلحين، ينتشرون عند حافاتها؛ تحسباً للمجهول.

ألوف من المصلين جاؤوا من كل مكان؛ لكي يلتقوا برجل المدينة وإمامها هاشم عبد السلام، فهو يعرف كيف يتحدث، وكيف يتحدى، وهو يعرف ـ كذلك ـ كيف يجعل الجذوة المشتعلة في الصدور، تزداد توقداً واشتعالاً.

وهناك... وهناك.. وعبر هذا الشارع وذلك الزقاق، كان الناس يتدفقون.. ليس ثمة غني أو فقير ها هنا.. ليس ثمة كبير أو صغير..

إنهم يتوحدون اللحظة.. ينصهرون.. والتاريخ. الملهم الذاتي المحدود، لكي يضعوا وجودهم على صعيد واحد أمام الله.. والتاريخ، والضمير...

لمحتهم سلمى.. كانوا يحسون بسعادة بالغة وهم يفترشون الأرض بانتظار الخطبة.. وكأنهم ـ بالإيمان والتوحد ـ تجاوزوا حدود المخاطر المنتظرة، ودخلوا مملكة الأمن والرضا، هنالك، حيث يكون الإنسان على استعداد كامل؛ لأن يموت وهو قرير العين.

وقال عبد الرحمن في نفسه وهو يقترب أكثر من جموع المصلين: ها هي ذي الصلاة؛ التي كنت أحلم بها، إنني أجدني قبالة اللّه فيما يصعب علي التعبير عنه.. والتفت إلى ابنته:

ـ سلمى، اذهبي إلى هناك، حيث النسوة يفترشن الأرض، ويؤدين الصلاة..

تركته سلمى، واتجهت إلى حيث أشار، واختار هو مكاناً من الأرض بين حشد من المصلين..

وماهي إلا دقائق، حتى قدم هاشم يحوطه ثلاثة من الشبان المسلحين.. قامة فارعة، ووجه أسمر ممتلئ، تزينه لحية قصيرة، وعينان سوداوان تتقدان جرأة واشتعالاً..

ارتقى المنبر، فإذا بأصوات الألوف المتجمهرة من المصلين رجالاً ونساء، تخفت فجأة، ويهيمن على المكان هدوء عجيب..

لم يقل الرجل كلمات ولا صاغ أحرفاً، هكذا قالت سلمى في نفسها، لكنه أطلق شواظاً من نار.. وكان يعرف كيف يحرك أفئدة المصلين، فيبكيهم، ويضحكهم، ويرضيهم، ويسخطهم، يطفئ هواجس التردد والخوف، ويشعل نار التحدي والاستشهاد.

وكان ـ وهو يستعرض الوقائع ويعلق عليها ـ كمن يعلم مسبقاً، أن الرد على التحدي، سيكون عما قريب، وأن حدثاً كبيراً، ستشهده المدينة بعد يوم أو يومين، وربما بعد ساعات.. وأن خطبته هذه، ما هي إلا حشد للطاقات، وتهيئتها لليوم الموعود.

وعندما ختم كلماته وغادر المنبر، لكي يؤم المصلين، كان صوته وهو يرتل آيات من كتاب الله كالشلال، يجتاز المسجد إلى الباحة، لكي ينداح بعدها في المدى..

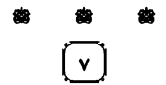
وأحس عبد الرحمن بنشوة روحية عارمة تغمر عقله وحسه ووجدانه، وقال في نفسه: ها قد أعادني الرجل إلى شبابي.. صارخاً. استعداد اللحظة، لأن انطلق مع إخواني متحدياً.. صارخاً..

وما كان يحس به عبد الرحمن ويقوله، كان يتصدى في نفوس المصلين جميعاً.. سلمى أحست من جهتها بتوقد أكثر، وكانت تشعر بسعادة غامرة، وهي ترى آخر شرخ في وجدانها يتضاءل ويختفي.. ليس بمقدور خطيبها ـ بعد اليوم ـ أن يسحبها ثانية إلى مواقع التردد والازدواج.. في لحظات المصير، ليس ثمة خيار، فإما الأمن والاستقرار، وإما الخوف والمطاردة والغربة.. لكنه أمن يخفي وراءه الخزي والذلة، وتغرب يمنح الإنسان المؤمن أعز ما يطمع إليه: التوحد، وتلك هي السعادة؛ التي يبتغيها المؤمنون.

وكان بمقدور هاشم عبد السلام، وقد أشعل نفوسهم، وصعد بها صوب نقطة التوتر القصوى، أن يقودهم في تظاهرة هادرة، وأن يتحدى بهم ليس أنصار السلام فحسب، بل السلطة نفسها..

لكنه لم يفعل.. لقد كان يعرف أن الارتطام بالغزاة، هو ما كان يريده طاغية بغداد.. ومن يدري، فلعل في الأمر ما يخفى على

عبد الرحمن وابنته وجل المصلين، الذين اضطروا للعودة إلى دورهم وهم يطوون صدورهم على الغضب، وقلوبهم على الجمر؛ الذي يتطاير شرراً. .



غادر هاشم عبد السلام المسجد الجامع وهو يستعيد في ذهنه الأحداث المتلاحقة لهذا اليوم، ولما ينقضي بعد سوى نصفه الأول. . لكنه، وهو يستسلم لتداعي الأفكار والخواطر، وجد نفسه يعود المرة تلو المرة عند واحدة منها.

قبل يومين فقط، أتيح له أن يلتقي ـ عرضاً ـ بأحد معارفه القدامى: حنا جرجس، في جريدة الأنوار المحلية، حيث كان يلتقي بعض مثقفي البلد، والمعنيين بالشؤون العامة.

نهض حنا واقفاً لدى مشاهدته هاشم عبد السلام، وقال بحرارة مصطنعة:

ـ أهلا بالصديق الغائب، لشد ما كنت أتوق للقاء كهذا. . إن لدي الكثير مما أريد أن أقوله لك.

استأذن صاحب المطبعة (شيت الموصلي) بدخول الصالة؛ لمتابعة بعض أعماله هناك، بينما أجاب هاشم باقتضاب:

ـ فرصة طيبة.

أراد أن يجلس قبالة حنا، ولكن هذا ألح عليه أن يكون في جواره.

ـ منذ متى ونحن لم نلتق؟

تساءل حنا وهو يبتسم.

أجاب هاشم:

ـ ليس بأقل من سنتين على ما أظن.

ـ أكثر.. أكثر.. ألا تود أن تشرب شيئاً؟

ـ ليس غير الشاي الغامق ما يعيد للرأس استقراره، فإن الإنسان يعاني من الدوار المزمن في هذه الأيام!

قال حنا وقد أحس بالوخزة:

ـ ولكنك بخير والحمد لله!

أجاب هاشم بصراحته المعهودة:

ـ لن أكون بخير، ومدينتي تتلوى تحت وطأة غزو سيسخر له الزعيم؛ حشوداً من أدعياء السلام.

انكمش حنا بعض الشيء، وبذل جهداً مزدوجاً لاستعادة بشاشته وتغيير الموضوع، للابتعاد عن نقطة المجابهة.

ـ الحق، إنني منغمر هذه الأيام حتى شحمة أذني في ترجمة كتاب للمستشرق المعروف برنارد لويس (الإسلام والغرب)، وأنت تعرف أن المرء إذا رمى ثقله في عمل كهذا، فإنه ينسى الدنيا وما فيها.. أو يكاد!

كان حنا جرجس داود، واحداً من مثقفي المدينة الجيدين، وكان متمكناً من الفرنسية والإنكليزية إلى حد كبير، ومع أن عمله في مديرية معارف المدينة، كان يستنزف منه الكثير من الوقت، فإن هذا لم يصرفه عن توجهه الأساسي، القراءة والترجمة، وكتابة بعض المقالات

والبحوث القصيرة في مختلف شؤون الفكر، وبخاصة، التاريخ والحضارة، ونشرها في عدد من الصحف والمجلات.

أجاب هاشم:

ـ ولكنك على ما بلغني عنك، بدأت توجه اهتمامك نحو مسائل أخرى غير الترجمة والقراءة..

حدق فيه حنا عبر نظارته ذات الإطار المعدني الأصفر الرفيع، وأدرك أن محاولة تغيير دفة الحوار صوب وجهة أكثر ودية، أمر غير مجد.. فتحفز للمواجهة هو الآخر، ولكن، ليس قبل استنفاد آخر الإمكانات الدبلوماسية.

ـ هاشم، إنك تدري كيف أن المرء قد يستل أحياناً من صميم عمله وهوايته، بل قد يبعد عن أهله مرغماً دون أن تكون لديه القناعة الكاملة بهذا الفراق!

أجاب هاشم وهو يبتسم:

ـ يعني أنك انتميت إلى حركة أنصار الإسلام في الموصل مرغماً؟ وذهبت إلى بغداد للتنسيق مع اللجنة المركزية على غير رغبة منك؟!

ابتعد حنا في مكانه قليلاً، واتخذ وضعاً يمكنه من تجاوز نظرات هاشم الساخنة، وقال:

ـ ليس هذا ما أعنيه، إنما..

أردف هاشم وهو يمد يده إلى جيب جبته، ويستخرج مسبحة حمراء، راح يطقطق بحباتها:

ـ المدينة كلها تتحدث عن هذا.. إنها ليست مسألة استنتاج أو تخمين، ولكنها حقيقة مشهودة، كلقائي بك في هذه اللحظة.

قدم صبي المطبعة بكوبين من الشاي، فتناول حنا أحدهما، وقدمه إلى هاشم، ووضع الآخر أمامه على النفاضة الصغيرة.

ـ الحق أنني أحلم بانتمائك أنت أيضاً إلى أنصار الإسلام.

صرخ هاشم:

ـ أنا؟!

ـ نعم أنت.. ماذا في ذلك؟ إنها ـ لو أردت الحق ـ حركة لتعزيز القيم النبيلة، وحماية الإنسان من القتل والفناء.. أتراك نسيت ويلات الحرب الثانية؟، وما فعله النازيون ضد أمن الإنسان، وسلام العالم؟

ـ لا تذهب أبعد مما يجب.. إننا هنا في العراق.. و في مدينة الموصل بالذات، ودعنا من المثاليات؛ التي تتخذ ستاراً لممارسات نقيضة في أغلب الأحيان.. ما الذي ينويه أنصار السلام؟

قاطعه حنا جرجس:

ـ وأنا أيضاً أرفض الحديث على مستوى النوايا، ولنسأل: ما الذي فعله أنصار الإسلام؟

قال هاشم:

ـ الحق معك، فلنجب على السؤال من هذه الزاوية.. أنصار السلام ـ إذا أردت الحق ـ لا يعدون أن يكونوا إحدى واجهات الحزب الشيوعي، وإنك تعرف جيداً، كم يتصاعد الغزل هذه الأيام بين الشيوعيين وبين عبد الكريم قاسم، وكيف أنه اتخذهم أدوات لتدمير كل من يقف في طريقه، ولا أعتقد أن مثقفاً جاداً يحترم الإنسان، يمكن أن يبرر الطغيان، أو يسمح لنفسه أن يغدو أداة لحمايته.

وكمن يتلقى ضربة غير متوقعة في حلبة الملاكمة، أحس حنا بأن حججه تتهاوى الواحدة تلو الأخرى. . لكنه قرر المقاومة حتى آخر لحظة.

ـ إن عدداً من علمائكم انتموا للحركة، فلو أنهم رأوا في ذلك بأساً، لما فعلوا. إنني دعوتك من هذا المنطلق. . إنك تعرف جيداً الإمام حامد السلمان، وتعرف كذلك الإمام يونس العبد الله، وكلاهما الآن من أنشط العناصر في أنصار السلام. .

أجاب هاشم وهو يفرش ابتسامة ساخرة على مدى وجهه:

ـ سيذهبان يوم غد إلى بغداد مع وفد الحركة؛ للتنسيق بصدد غزو المدينة. .

قاطعه حنا بشيء من العصبية:

ـ ولم تسميه غزواً؟!

قال هاشم بهدوء:

ـ لأن صحفكم أطلقت عليه هذه التسمية!

تساءل حنا مستنكراً:

ـ صحفنا؟

ـ بكل تأكيد، فما دمت تعترف بأنك أصبحت واحداً من أنصار السلام، وما دام أنصار السلام لا يزيدون على أن يكونوا واجهة من واجهات الحزب الشيوعي، فإن ما تقوله جريدة اتحاد الشعب، هو ما تقوله أنت بالضرورة. . وإلا، تحتم عليك أن تنسحب لحظة ارتطام مقولات منظمتك بقناعاتك الخاصة!

أجاب حنا وهو يحس بتضييق الخناق عليه:

ـ وعلماؤكم الذين انتموا للمنظمة؟!

ـ هم كبعض قسسكم؛ الذين دخلوا كوادر حزب ملحد لا يؤمن بكلمة واحدة مما تقوله الأناجيل..

اعترض حنا:

ـ ولكن..

واصل هاشم:

ـ إن هذا لا يعني شيئاً البتة، وكما يقول المثل المعروف: إن الاستثناء يعزز القاعدة ولا ينفيها.. فهناك على الطرف الآخر ألوف من علماء المسلمين، ورجالات الكنيسة النصرانية في العالم، يقفون بإيمان عميق في مواجهة الكفر والإلحاد؛ اللذين يسعيان لاكتساح العالم باسم الإيديولوجية، وقوانين الحركة التاريخية، وحماية الإنسان، وأنصاف المظلومين.. حنا، قل لي ـ باسم قناعاتك الذاتية ـ من أحق بهذه الدعوة، نحن أم هم؟!

أجاب حنا وقد استعاد شيئاً من توازنه:

ـ لا أجد ثمة علاقة البتة بين اختياري الشخصي، وبين موقف الكنيسة! إن..

قاطعه هاشم بهدوء:

ـ ها هنا، أعرف جيداً كذلك، ما الذي فعلته!

تساءل حنا بشيء من العنف:

ـ ماذا؟

قال هاشم:

ـ إنك واحد من الذين يسعون لتسخير الكنائس في الموصل لخدمة الموجة الجديدة بحجة الوهم؛ الذي صنعه أعداؤنا وأعداؤكم، وهو أن هناك خطراً تاريخياً مشتركاً..

سأل حنا وقد أحَسَّ أن أوراقه أصبحت مكشوفة أكثر مما كان يتصور:

ـ أي خطر مشترك هذا؟

قال هاشم:

ـ الإسلام!

ـ ولكن..

ـ دعنا من لكن هذه.. وأجبني على سؤالي المحدد: ألم تعقد قبل يومين اجتماعاً موسعاً في كنيسة قاصد الرسول في محلة الرابعية؟ ما الذي كنت تستهدفه؟ وقبل هذا، من الذي دفع بك إلى هناك؟ أهي قناعتك الخاصة؟ أم الالتزام بأوامر المنظمة؛ التي عهدت إليك بهذه المهمة؟

أراد أن يتكلم، ولكن (هاشم) أسكته بإشارة من يده وهو يتساءل:

ـ أما كان يجدر أن نضع أيدينا بأيدي بعض، وأن نتحد لمواجهة موجة الانحلال والإلحاد؛ التي تهدد البلاد؟ إن إلهنا وإلهكم واحد ياحنا، وسعيك أحرى أن يتجه إليهم.. إلى دائرته الحقيقية، حيث الإيمان يكافح من أجل حماية وجوده في العالم.

ومرة أخرى، سعى حنا لكي يرد، ولكن هاشم، واصل حديثه:

ـ إنني أخشى أن تندفع أكثر في هذا الطريق، وأن تورط معك الكنيسة، فتقعان في الخطيئة التاريخية حيث لا معذرة، وأخشى ـ كذلك ـ

أن يكون الزعيم، قد سعى لاستخدامكم، ليس لتعزيز مواقع المد الشيوعي الجديد كما يتوهم الكثيرون، وإنما لتعميق الشرخ بين المسلم والنصراني فيما يمكن أن يزيد من قبضته أكثر فأكثر.. إنني، ما كنت أتوقع أن ينساق مثقف ذكي مثلك لممارسة لعبة كهذه..

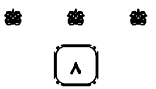
نهض حنا واقفاً بقامته النحيلة ووجهه المائل للصفرة، وبذلته الأنيقة، وأخذ يذرع الغرفة وهو يقول:

ـ لك أن تتحدث بما تشاء، وتستنتج ما تشاء... ولكني، أحب أن أعلمك بأن حركة التاريخ؛ التي تتجلى هذه الأيام عن حتمياتها المنتظرة، سوف تطوي هذه الاستنتاجات الخاطئة، وسوف تؤكد شيئاً واحداً، هو صدق موقفي وسلامته.. وأخشى أن تجيئني يومها معتذراً..

نهض هاشم بدوره، وتقدم خطوات؛ لكي يقف قبالة حنا، وقال بصوته ذي النبرة القوية الواضحة:

ـ أنا أجيئك معتذراً؟ لو تحقق هذا يا حنا، لو تحقق بما يريده ويخطط له الاستعمار، وليس حتميات التاريخ وتجلياته، كما توهمون به جماهير الناس، فإنني سأجيئك يومها ليس معتذراً، ولكن، مقاتلاً أو شهيداً!!

❁ ❁ ❁



لم يخرج هاشم عبد السلام عن خواطره، سوى توقف سيارة جيب عسكرية على حين غفلة قريباً منه، غادرها ضابط شاب برتبة ملازم أول، وحيا هاشم، ثم ما لبث أن خفض صوته وهو يقول:

إن اللواء العقيد الشواف يرجو أن يلتقي بك مساء هذا اليوم في داره، بحدود الساعة التاسعة.

وشد الملازم على يده وهو يسأله:

ـ هل أجيئك قبل الموعد؛ لأقلك إلى هناك؟

أجاب هاشم:

ـ لا . . فإني أرى أن آتي بسيارة مدنية لأحد الأصدقاء، فذلك أفضل.

أزَّ محرك السيارة، وانطلق الملازم عائداً إلى المعسكر، بينما واصل هاشم طريقه إلى داره في محلة الجامع الكبير، مجتازاً عدداً من أزقة الموصل القديمة، حيث لا يفصل الدور عن بعضها ـ أحياناً ـ سوى شرايين ضيقة أشبه بممرات لا تتسع لأكثر من شخص أو اثنين، وحيث تميل الجدران المغلفة ـ بالمرمر الأزرق الجميل ـ على بعضها، وكأنها تتحدث إلى بعضها، مضيقة الخناق أكثر على المارة. وحينذاك، كان سكان الزقاق يلجؤون إلى إسناد جدرانهم المتداعية بأعمدة غليظة من الخشب؛ خشية أن يهوي بعضها على بعض.

جميلة هي محلات الموصل القديمة . . بأفيائها الظليلة، بنسائمها الرطبة، بطرقها الملتوية غير المرصوفة، بتكويناتها المعمارية المتقنة، بقناطرها المعقودة، وبدورها؛ التي تعد آية في قدرة البناء الموصلي، على اعتماد المرمر الأزرق، واللعب به، والتفنن على واجهاته . . حيث الزخارف المتقنة، والنوافذ الصماء، والأعمدة الأسطوانية، والتشكيلات الجمالية؛ التي تستهوي العيون، وتستجيب لأشواقها . .

إن الذين يزورون هذه الأزقة، ويدخلون دورها، يتذكرون

ـ والحنين يعتصرهم ـ مدن الإسلام القديمة؛ التي لاتزال تشخص ببعض تكويناتها متحدية الزمن، والتاريخ.. قرطبة.. غرناطة.. دمشق.. القاهرة القديمة، وبغداد..

وتنهد هاشم وهو يسحب نفساً عميقاً ويزفره بأسى، وانتصب إزاء ذاكرته حنا جرجس مرة أخرى. وقال في نفسه: لعله الآن، يلقي كلمته في مهرجان أنصار السلام، فهو واحد من الأسماء؛ التي تردد إنها ستقول كلمتها في المهرجان، ولعله بعدها، ييمم مع عدد من رفاقه صوب دير ماركوركيس، حيث تقرر عقد مؤتمر أضيق نطاقاً هناك، يحضره زعماء الحزب الشيوعي، وأنصار الإسلام!

دير ماركوركيس؟ ذا.ذا.ن يهذا.ذا.. ولكن لا بأس، فها هي توقعاته تتحقق، وما قاله لحنا قبل يومين، سينفذ بالحرف عصر اليوم!

كان الدير يقع في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة، على الضفة الأخرى من نهر دجلة، يمتطي بمنشآته الجبسية العتيقة، ربوة من الأرض، تطل على الهضاب والسهول المحيطة بها، وتمنح الفرصة للناظر؛ لكي يمتع بصره بالنهر، وهو يتلوى هناك عبر مساحات واسعة من الأرض المغطاة بأشجار الصنوبر، والحور، والسرو، والسنديان، قبل أن ينحدر؛ لكي يخترق الموصل، ويمنحها ماءه بسخاء.

وكان أهالي المدينة، إذا ما خرجوا في أمسيات الربيع عبر نزهاتهم التقليدية، يبحثون عن مكان مناسب، ما وجدوا مكاناً أبدع ولا أجمل من روابي ماركوركيس، إنها ـ في هذا الفصل ـ تشع خضرة وجمالاً، وتمنح ـ بتنوع تركيبها وتعقيده ـ متعة أكبر للمتنزهين..

مئات من مواسم الربيع، والناس يبحثون عن فرحهم، ويلتقون به عند روابي ماركوركيس، المتموجة الخضراء، والموصلي؛ الذي لا

يذهب إلى ماركوركيس ولو لمرة واحدة في الربيع، فكأنه ما عرف هذا الفصل، ولا شم رائحته، كأنه اختار أن ينفى من حضرته؛ التي عرف كيف تمنح الجمال للواصلين. .

إذاً ـ قال هاشم ـ سيكون لقاؤهم عصر اليوم هناك، وسيحتضنهم الدير. . . ومن يدري؟ فقد يباركهم بعض الرهبان المنقطعين للعبادة، وهم لا يدرون ما الذي يدور بين ظهرانيهم، وفي أروقة وباحات معبدهم العتيق!

انعطف يميناً، ودلف إلى طريق ضيق يتفرع عن شارع نينوى، وما لبث أن وجد نفسه قبالة الجامع النوري الكبير ذي المنارة الحدباء الشاهقة، والمصلى الواسع، والفناء المترامي. .

وأحس ـ وهو يحدق في المنارة العالية ـ باطمئنان عميق. . وقال في نفسه: ها هي ذي المنارة المتفردة؛ التي بناها يوماً نور الدين محمود، قاهر الغزاة الصليبيين. . الموحد والمحرر. . واختار لها مكاناً في قلب المدينة، ومد أسبابها إلى السماء؛ لكي تبرز واضحة للعيان من أي مكان يلقي منه المرء بصره. . لقد ظلت قائمة، عبر القرون المتطاولة، بانسيابها الجميل صوب الأعالي، شاهدة على أنه ما من أحد يقدر على تغيير وجه المدينة الأصيل.

وتساءل ـ وهو يصعد عبر درب جانبي بمحاذاة الجامع، لكي يغدو على بعد خطوات من بيته ـ: أتستطيع قوة في الأرض أن تنزع عنا ملامحنا، وأن تغير بصمات أصابعنا؟ وقال، وهو يتذكر تحدي بعض الشيوعيين بأنهم لو أتيح لهم الانتصار، فلن يبقوا على منارة واحدة في البلد، يرتفع منها النداء إلى الله: إن الموصل، أعلنت انتماءها ـ منذ

قرون ـ إلى منارتها العالية، أخذت منها اسمها، واكتست عظامها العارية، بقوة الروح؛ التي تبثها، لحماً ودماً.. أفيكون بمقدورهم أن يغيروا بصماتها، أو ينزعوا عنها ملامحها؟!

ما لبث أن ولج هاشم إلى داره.. وما إن وضع خطواته الأولى على الممر المكسو بالحلان والمفضي إلى الحوش، حتى صفعته أصوات حفنة من أطفاله وهم يتصايحون هناك.. وقفز علي؛ لكي يتسلق كتفه كما اعتاد دائماً..

ابتسم هاشم بصبر نافد، وسحب الطفل؛ لكي يضعه على الأرض ثانية، فأحس هذا بشيء من خيبة الأمل، ولكنه، سرعان ما اندمج في اللعب، ونسي جفوة أبيه؛ التي لم يعتدها من قبل..

سيجيء اليوم؛ الذي يتاح لي فيه أن ألعب معكم أيها الصغار، قال في نفسه،أما اليوم، فإن هناك من يريد اغتيالنا.. من يريد أن يحرمنا حق اللعب، والأبوة.. وعلينا أن نتصدى للمحاولة؛ لكي نعيد للحياة عذوبتها، وللصغار لعبهم البريء..

صعد درجات ثلاث باتجاه الإيوان؛ الذي يتصدر الحوش كالعادة.. كان الدار ـ رغم فقره الواضح ـ يتضمن الكثير من الوحدات المعمارية للبيت الموصلي القديم؛ الذي غدا جزءاً أصيلاً من تراث مدينة، يمتد عمرها مئات السنين،الإيوان العالي ذو القوس المدبب، اللوحة الجبسية التقليدية؛ التي تتصدره بآية كريمة، أو مثل سائر، أو حكمة بالغة، والتي يتعايش فيها الأبيض والأزرق، بتناغم بديع.. الوحدات الزخرفية المعقدة على المرمر الممتد أعلى الأبواب والنوافذ، تغور حيناً، وتتلوى حيناً، وتنساب أحياناً، وتحكي بطريقتها

الخاصة، قصة جيل من الناس، عشقوا الحجر الأزرق، فنقبوا عنه واستخرجوه، وعرفوا كيف يجعلونه يتحدث ويغني، وهو محبوس هناك، كالعصافير السجينة، في دورهم العتيقة. .

وكالعادة ـ أيضاً ـ فقد كان الإيوان يفضي إلى غرفتين معقودتين عن اليمين والشمال. . مفروشة أرضياتهما بالمرمر، ومصفوفة على جدرانهما الدواليب الخشبية ذات الأفاريز المحفورة على شكل ورق العنب، ذوات الحواف السبع البديعة. . وعلى الأطراف الثلاثة لإحدى الغرفتين، كانت تمتد الفرش المغطاة بالسجاد الملون، تفصل بينها وبين الجدار، الوسائد ذات الرؤوس البراقة، بقماش الكريساتان ذي الألوان الفاقعة. .

اجتاز هاشم مدخل الغرفة اليمنى، ونزع عمامته وجبته، وعلقهما على مشجب يبرز من وراء الباب، واستلقى مرهقاً عند أقرب مكان. . تنفس بعمق، وهو يشعر بارتياح بعد جولته المرهقة تلك. .

ـ هل آتيك بلحاف؛ لكي تنام قليلاً؟

نادت زوجته من الحوش. .

ـ لا، فإنني أريد أن أرتاح قليلاً. . ليس في نيتي أن أنام. . هل أكل الصغار؟

ـ وهل سينتظرون حتى هذه الساعة؟ لقد تغدوا منذ أكثر من ساعتين!

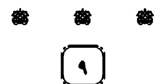
أحس فجأة أنه آذى أصغر أطفاله، علي، الذي كان يحلو له أن يدلله كثيراً، فطلب منها أن ترسله إليه. .

ـ سوف يفسده تدليلك. . يارجل. .

ـ أرسليه. .

بعد لحظات كان الطفل يتسلق الدرج بخفة، ويدخل الغرفة مسرعاً، وما يلبث أن يرتمي في أحضان أبيه. .

❁ ❁ ❁



تلفع بكوفية بيضاء، وأحكم وضع نظارت غامقة على عينيه، واستبدل بالجبة والعمامة، بدلة اعتيادية، وغادر الدار.

كانت تنتظره عند مدخل الزقاق المفضي إلى الشارع الرئيسي، سيارة فوكس هول عتيقة موديل ٩٥٢، وكان يجلس وراء مقودها أحد أصدقائه القدامى: حازم صبري. . سلم عليه وهو يقفز إلى جواره، فقرقعت السيارة المرهقة، ثم ما لبثت أن انطلقت بصعوبة باتجاه شارع نينوى. .

لكثرة ما كان يدور في رأسيهما من أشياء يمكن أن تقال، فإن أياً منهما لم يشأ أن يقول شيئاً. . قد تكون الكثرة مدعاة للقلة، كما أن الاكتظاظ ـ أحياناً ـ قد يجاور العدم. .

ـ ماذا فعلت بعد ظهر اليوم؟!

أجفل هاشم بعض الشيء، بينما واصل حازم صبري:

ـ لقد وضعت جماهير المصلين على حافة النار، ثم قلت لهم ـ بعدها ـ: حذار أن تلقوا بأنفسكم فيها!

ابتسم هاشم وهو يتخلل لحيته القصيرة من وراء الكوفية وقال:

ـ لأنه ليس من المعقول أن ندفعهم إلى الاحتراق.. لم يأن الأوان بعد..

تساءل حازم بنفاد صبر:

ـ متى إذاً؟ لقد بلغت أعصاب الناس في توترها الذروة، وليس ثمة من منزع..

أراد هاشم أن يغير الموضوع، فضرب بكفه على دشبول السيارة المتشقق، وهو يقول:

ـ ألا تستطيع أن تعثر لي على سيارة مثل هذه، أو أسوأ منها قليلاً، شرط أن يقبل صاحبها بتأجيل الدفع؟

ـ ولم؟ إن سيارتي هذه وصاحبها تحت أمرك!

ـ شكراً.. شكراً، وإنما أنا بحاجة إليها لعشرات من التنقلات اليومية.. إن انتظار الباص، أو المشي على الأقدام، يستنزف منا وقتاً طويلاً..

تساءل حازم وهو ينعطف يميناً باتجاه شارع الثورة في طريقه إلى الدواسة.

ـ بالأقساط؟ إنني أعرف رجلاً على استعداد لذلك..

وتذكر هاشم.. إنه لا يكاد يسد براتبه الشهري المتواضع مطالب عائلته المعاشية، فكيف سيجازف بشراء سيارة قد تحمّله مئة وخمسين ديناراً؟ وشعر بشيء من الارتياح وهو يتذكر صديقه إبراهيم عبد الباقي، الخياط، الذي سبق وأن وعده بإقراضه أي مبلغ يشاء.

كان هاشم ينتمي لبيئة فقيرة.. بيئة مسحوقة بمعنى الكلمة.. وقد بدأ وأقرباؤه من نقطة الصفر، كما يقولون.. وها هم الآن، يتدرجون ببطء على طريق الكسب، فقراء، كادحين.. وكان هو يكدح معهم.. ولم يجد ضيراً أبداً في أن يمارس ـ بين الحين ـ هذه المهنة أو تلك؛ من أجل دعم مطالب أهله المعاشية. ومذ كان صبياً، كان قد تعلم بعض المهن.. النجارة بخاصة.. فغدت بالنسبة إليه ظهيراً يعينه على إسناد دخله المحدود، كلما حزب به الأمر..

وتساءل: ما الذي يمنعه من الانتماء للحزب الشيوعي، ما دام أنه حزب الشغيلة والكادحين؟ وقال في نفسه: أستغفر الله!! إنهم مخطئون بكل تأكيد، فإن القتال، ليس ـ دائماً ـ بين الغنى والفقر، إنني قد أسكت على الذين يجوعونني، رغم أنني أمرت أن أقاتلهم! ولكنني، لن أسكت ـ بحال ـ على الذين يحجبون عني حق الانتماء للكون.. كسر القشرة الصلبة، والجدران القريبة، والامتداد في آفاقه اللانهائية.. الذي يقطعون جذوري الآدمية عن موطنها الأصيل، وتربتها الحقيقية، ويسعون إلى تضييق الخناق على إنسانيتي، والعودة بها ثانية ـ بعد إذ هدتها الأديان السماوية عبر رحلة الزمن الطويل ـ إلى عصور الغريزة، والاصطراع على القوت..

إن الأغنياء؛ الذين أعماهم البطر، قد ينتمون إليهم يوماً، وقد يقتنعون بدعواهم، فالطرفان، قد يلتقيان في نهاية الأمر عند ضرورات البحث عن إشباع الحاجات الجسدية، أما الفقراء؛ الذين لم تحجب الملذة يوماً على أبصارهم، فإنهم سيتولون كبر قتالهم!!

وطفت على وجهه ملامح السخرية والاحتقار، وهو يتذكر خطأ من أغنياء البلد وأرستقراطييها، مدوا أيديهم بالسر والعلن لهؤلاء

الشيوعيين، من أجل حماية ظهورهم على الأقل. . ضمان خط الرجعة لهم، كما يقولون. . ترى، ماذا سيحدث لو أظلمت الدنيا، وتمكن الشيوعيون ـ لا سمح الله ـ من إحكام قبضتهم على البلد؟!

أما هو، فسيظل يقاتل ضد تسطح الحياة؛ الذي يسعى إليه الشيوعيون، ضد تحويل السعي البشري إلى ممارسات حشرية، واصطراع من أجل القوت، حيث يبدو الناس معلقين كالعناكب على الجدران والزوايا، تنتظر فريستها. وحيث يزدحمون كالنمل في الشقوق والمغارات؛ لتطمين حاجاتهم ومصالحهم. .

سيكافح وأصحابه، من أجل إعادة الحياة إلى وضعها الحقيقي، ومدها إلى حيث يريد الله لها أن تكون. . آه لو يعرف هؤلاء يوماً أن قضيّتنا ليست صراعاً على هذا الهدف المنظور أو ذاك، ولكنها محاولة للتحقق بوجود أعمق غوراً، وأن ذلك لن يكون بدون كسر القشرة الخارجية للعالم والأشياء، والتوغل إلى هناك. .

وتذكر حنا جرجس مرة أخرى. . إنه واحد من أولئك المترفين، وها هو يضع يديه في أيديهم. . ولكن قد تكون لهذا مبرراته ودوافعه. . أما الآخرون، فكيف؟

وقال في نفسه: إن ما يحدث، ينقض مقولات الشيوعيين، فالواقع أشد ثقلاً وإقناعاً من ادعاءات الإيديولوجية والتنظير. . وغداً ـ عندما يجد الجد، وتدق ساعة الحسم ـ فإن الذين سيقاتلون الشيوعيين، هم الفقراء والمسحوقون. . أما المترفون، فسيجلسون متفرجين على الأقل، لكي ينظروا لِمَنْ تكون الجولة، وبعدها، فإنهم مستعدون لتحصين أنفسهم بالمال إزاء الفئة المنتصرة!

فما أخرجه عن أفكاره المتدافعة إلا حركة السيارة وهي تتباطأ؛ لكي ما تلبث أن تستقر قريباً من الأطوار عند آخر نقطة في شارع المطار في الطرف الجنوبي للدواسة، حيث يقوم دار العقيد الشواف.

غادرها وهو يشد على يد حازم، فسأله هذا:

ـ أرجع إليك ثانية؟

ـ ليس ثمة ضرورة، فساجد هو من يعيدني إلى البيت..

قرقعت السيارة ثانية وهي تستدير؛ لكي تنطلق وسط رشقات من الدخان الكثيف، عائدة إلى البلد، بينما تقدم هاشم باتجاه المدخل الخارجي؛ الذي يخترق سور الحديقة من جهته الشمالية، وتحفز جنديان يقفان عند كشك إلى جوار الباب لاعتراض طريقه وتوجيه الأسئلة إليه، لكنه أعفاهما من هذه المهمة بنزعه الكوفية والنظارات..

رحبا به، وأشارا إليه أن يدخل..

اجتاز حديقة واسعة تظللها أشجار السرو والصنوبر الريانة الخضراء، كان عقرب الساعة يشير إلى الساعة التاسعة والنصف مساءً، والظلام يطبق بثقله على الأماكن والأشياء، فما رأى من الحديقة ـ وهو يجتازها إلى الباب الداخلي ـ زهراً ولا ثمراً، ولكنه، شم روائح شذية يعرف ربيع الموصل كيف يركزها، ويطوح بعبيرها في الأجواء، وكيف يخفف بها حزن المحزونين..

دق جرس الباب، فما لبث أن فتح بعد لحظات.

ـ مقدم عبد الحميد؟

فتح هذا ذراعيه، واحتضن هاشم وهو يقبله، ويمسد بيسراه على لحيته الأنيقة..

ـ إننا بانتظارك أيها الرجل منذ أكثر من نصف ساعة . .

ـ حاولت أن آتيكم في الموعد المحدد، ولكن السيارة تأخرت علي . .

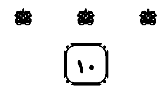
وهما يجتازان الصالة صوب غرفة الاستقبال، أردف هاشم وهو يبتسم :

ـ الحق أنه يتحتم علينا ـ إذا أردنا أن نفي بمطالب قضيتنا ـ أن نسلم بالتكنولوجيا الحديثة على الأقل . .

تساءل المقدم عبد الحميد وهو لا يدري ما الذي يعنيه :

ـ التكنولوجيا؟!

ـ بكل تأكيد، فلو كانت السيارة؛ التي أزمع شراءها تحت يدي، لجئتكم في الموعد المحدد، ولكن، لا بأس، فسأحظى بها عما قريب، وستجدونني معكم في أية لحظة تطلبونني فيها!



استيقظ عاصم صبيحة السبت متأخراً بعض الشيء . . صحيح أنه لم يذهب في اليوم السابق إلى معمل الدباغة؛ الذي تولى إدارته بعد وفاة أبيه منذ أقل من سنتين، إلا أن القلق؛ الذي اكتنفه ليلة أمس ـ بعد يوم حافل بالأحداث ـ وضعه أسير أرق لا يرحم، ولم يفلته حتى أطلت بوادر الفجر الأولى .

وما كانت تلك الأحداث لتهمه كثيراً لولا أنها انعكست بشكل لم يحسب له أيُّما حساب، على تصرفات خطيبته سلمى . . لقد أحس لحظة

مغادرته دار عمه ظهيرة يوم أمس، أن ثمة ما يتهدد حلمه الذي ظل يحرسه الشهور الطوال، فما إن أتيح له التحقق حتى أخذ يتفلت من بين يديه . .

آه لو أنها تنزع من رأسها هوس الاندماج فيما تشهده المدينة . . آه لو أن حمى التحدي؛ التي تعصف بجوارحها، تنعكس محبة وحناناً . . ما لها وما يجري في البلد؟ ولكن، لا بأس، فسيحاول المرة تلو الأخرى أن ينتزعها من التيار . . أن ينقذها من الهدير المخيف الذي اختارت أن تذهب إليه بإرادتها؛ لكي يأخذها بعيداً صوب الضفاف النائية، حيث لا قاتل ولا مقتول، حيث تختفي لغة الرصاص، لكي تحل محلها كلمات العشق والمحبة . .

كان عاصم قد أنجز دراسته الثانوية قبل سنتين بصعوبة بالغة فقد ذاق طعم الفشل أكثر من مرة، واضطر أن يقضي في بعض الصفوف ثلاث سنوات، أتيح له خلالها أن يستقبل ثلاث وجبات من الطلبة، يمضون إلى أهدافهم، وهو قاعد مكانه . . لا يبرح . .

لعله لم يجد التحدي المناسب؛ الذي يعينه على الاستجابة ومواصلة الطريق بسرعة، كما يفعل زملاؤه . . . تحدي الفقر والمصاعب والحرمان . . لقد نشأ في بيئة غنية مترفة، كانت تمنحه ـ بسهولة ـ كل ما يشتهي ويريد . .

وإذا كان بعض زملائه لا يحظون ـ عبر الأسبوع كله ـ بأكثر من درهم أو درهمين كمصاريف شخصية، كان هو يلعب بالدنانير، وزاده دلالاً أنه الابن الوحيد بعد ثلاث من الأخوات، سبقنه إلى الوجود.

كان أبوه ذو النون الدباغ، يملك معملاً كبيراً للدباغة على الطريق الذاهب جنوباً صوب بغداد، فضلاً عن أنه كان يملك أسهماً كثيرة في عدد من المصانع والأنشطة التجارية، وإذا أحس بأن حي رأس الكور

القديم لم يعد مناسباً لسكناهم، قرر أن يبني قصراً كبيراً وفق الطراز الحديث؛ الذي بدأ ينتشر في الضواحي المحيطة بالبلد، اختار له مكاناً مناسباً عند الجهة الشمالية المرتفعة المطلة على نهر دجلة، قريباً من أبنية المستشفى العام، وأنفق عليه بسخاء.

وبعد ثلاث سنوات من العناء والجهود المتواصلة، انتصب القصر قائماً بغرفه الفارهة، بصالاته المتداخلة، بمرافقه الأنيقة، بمطبخه؛ الذي غلفت جدرانه بالصيني الأبيض، بأرضيته؛ التي فرشت بالموزاييك الملون، وبحديقته الواسعة، التي تلفه من جهاته الأربع، يحيط بها سور أنيق، قليل الارتفاع، لكي لا يحجب جمال المعمار الحديث، الذي يميل إلى التكشف والتأنق والوضوح.

ولكن، مهما يكن من أمر هذا التقليد الحديث، الذي أخذ يطوق المدينة من جهاتها الأربع، معتمداً الكونكريت المسلح والحديد، فإنه ليس بمقدور المرء أن يجد فيه ملمحاً واحداً من ملامح المدينة الأصيلة، على الإطلاق..

كان أهل الموصل في الماضي، إذا انهالت عليهم الثروة، أنفقوا جانباً منها على دور أكثر رفاهية واتساعاً، ولكن أحداً لم يفكر يومها بأن يتجاوز مقولات المعمار ذي القرنين من العمر.. وما كان يخطر على بال أحد، أن يحيا بعيداً عن الجبس، والحلان، والمرمر الأزرق، والزخارف الغائرة، ورطوبة السراديب القديمة المعتمة، ذوات الأعمدة الأسطوانية، والعقود، والأقواس.

ولشد ما كان عاصم يتباهى بالدار؛ التي أقامها أبوه، ويدعو بعض زملائه إلى زيارته هناك، متعمداً أن يعيدهم إلى دورهم بسيارة البونتياك الأنيقة؛ التي سلمه أبوه نسخة من مفاتيحها.

وما لبث الفرح أن غمر الدار الجديدة بعد سنة واحدة من الانتقال إليها.. لقد اجتاز عاصم السنة الأخيرة من الثانوية، ونجح في الوزاري بدرجات غاية في التواضع، لكنه حصل على البكالوريا ـ على أية حال ـ بعد سنوات من الانتظار وإعادة المحاولة..

اعتبر والده ذلك حدثاً كبيراً، وعانق ابنه وهو يقول:

ـ ستكون البونتياك هديتي إليك، فألف مبروك..

لكن عاصم، لم يهنأ طويلاً بفرحته تلك، إذ كان عليه ـ بعد أسابيع قلائل ـ أن يختار الكلية؛ التي سيكمل دراسته فيها..

كانت فكرة مواصلة الدراسة ترهقه، بل إنها كانت تملأ نفسه خوفاً واكتئاباً وقلقاً، إذ كانت الدراسة المتوسطة والثانوية، قد استنزفت منه الكثير، ولم يُتح له اجتيازها إلا بصعوبة، وإذا كان نجاحه في السنة الأخيرة من قبيل الخوارق والمعجزات، فكيف سيتمكن من اجتياز الدراسة الجامعية؛ التي حدثه عنها بعض زملائه؛ الذين سبقوه، فصوروها كما لو كانت جداراً هائلاً يصعب تسلقه؟

كانت رغبة أبويه أن يواصل الدراسة، وفي كلية التجارة بالذات، مهما غلا الثمن، وارتفعت التضحيات.. فليس سهلاً أن يغادر عاصم الموصل إلى بغداد، لكي يتغرب هناك السنوات الطوال، وليس سهلاً كذلك أن يبدأ الشاب ملحمة جديدة لا تقل قسوة عن ملحمة الثانوية، إن لم تفقها عنفاً وضراوة.

وبمرور الأيام، أصبحت هذه الرغبة أشبه بهاجس ملح يضغط على تفكير الأب، فيدفعه إلى الإلحاح على ابنه؛ لكي يواصل الطريق، وقد وعده ومناه بالكثير إن هو استجاب للطلب..

لكن (عاصم) ـ وهو أدرى بقدراته ـ تردد كثيراً، ومرت عليه ليال بطولها لم يذق فيها طعم النوم، فليس أمراً هيناً أن يقدم على المجازفة، كما أنه ليس أمراً هيناً أن يكبت رغبة أبيه؛ الذي وهبه كل شيء..

فمن عجب أن يدخل القدر طرفاً ثالثاً؛ كي يحسم الأمر!

طرفاً ثالثاً؟ بكل تأكيد، فهو دائماً معنا، يرانا ولا نراه، ويصرف مصائرنا من حيث ندري حيناً، ولا ندري في معظم الأحيان.. والذين يرفضون الاعتراف بهذا الطرف الثالث، سرعان ما يدركون أنه يملك ثقلاً ليس من السهولة بمكان تجاهله، أو نفيه عن ساحة الوجود.

توفي ذو النون الدباغ، وكان يعاني منذ زمن طويل متاعب في كليته، وها هو ابنه الوحيد، بعد أيام الحزن الصعبة، يجابه مصيره ذا الدرب الواحد: أن يتولى الإشراف على المعمل، وإدارة ثروة أبيه، فضلاً عن أن يكون قيماً على البيت؛ الذي غدا ـ فجأة ـ معيله الوحيد.

وفي طريقه اليومي إلى المعمل ـ عبر شارع الغزلاني، فيما وراء المعسكر ـ لمح سلمى وهي تتجه إلى ثانوية الكفاح القريبة من الدار، وكانت المسألة في المرات الأولى ـ لا تعدو أن تكون مجرد إعجاب، ولكنها انقلبت ـ بالتكرار ـ إلى شيء آخر، يتجاوز الإعجاب.. أتراه الحب؟

ليس بمقدور المرء أن يصدر حكماً على علاقة يمسك بها طرف واحد، أما جانبها الآخر، فيظل سائباً.. ذلك أن سلمى من جهتها لم تشعر به أغلب الظن، ولعلَّها شعرت، ولكنه ليس ذلك الشعور المُتفرّد؛ الذي يناديها ويلح عليها: أنه هو!

ومهما يكن من أمر، فإن (عاصم) لم يشأ أن يتردد هذه المرة، وهرع إلى أمه؛ لكي تحسم المسألة..

ـ ولكن، لم يمض على وفاة أبيك سوى عشرة أشهر..

ـ إنني أقدر هذا، وأعرف كلام الناس؛ الذي لا يرحم، ولكنني لا أريد أكثر من جس النبض.

ـ ولماذا لا نؤجل جس النبض هذا لحين اكتمال سنة واحدة على الأقل؟

ـ أخشى أن تضيع مني!

ـ هنالك عشرات غيرها، ولن تستعصي عليك أية واحدة منهن!

قال وهو يتشبث بالفتاة؛ التي أعجبته:

ـ لكنها بالذات؛ التي أريد!

تساءلت الأم وهي تعيد شد قطعة (البويمة) السوداء على رأسها:

ـ هل هم في مستوانا؟

أجاب عاصم، وهو يطقطق أصابعه بشيء من القلق:

ـ لا أدري تماماً، ولكنني أتذكر أن أباها عبد الرحمن الشيخ داود، قد زار المرحوم والدي في المعمل مرة أو مرتين. لعلهما أصدقاء، ولعل..

قاطعته الأم:

ـ مئات، بل ألوف، ربما كانوا يزورون أباك في معمله، إن هذا لا يعني شيئاً..

واصل عاصم تشبثه:

ـ ولكنه قد يمنحنا الإشارة؛ التي تعيننا على الوصول.

ويومها، انقطع الحديث بين عاصم وأمه بمجيء عدد من الزائرات من معارف الأم، ولكنه لم يستسلم، وقرر أن يواصل الطريق، ولا سيما أنه رآها في اليوم التالي وهي تجتاز الشارع، فحدق فيها أكثر من المعتاد، وكادت تصدر منه كلمة ما، لكنه اضطر إلى كبتها، وما لبث أن وجد نفسه وهو يلوي مقود سيارته عائداً إلى البيت.

ـ أماه..

تساءلت الأم عن السبب؛ الذي عاد به في هذا الوقت، ولم يكن قد مضى على مغادرته الدار أكثر من نصف ساعة..

ـ لقد قررت أن تخطبينها لي..

قالت وهي تنظر إليه بدهشة:

ـ ولكن...

قاطعها بعصبية:

ـ لن أسمح لأحد أن يأخذها مني..

وتدخلت أخته الكبرى، وكانت قد تزوجت منذ أمد بعيد موظفاً يعمل مديراً للتحرير في بلدية الموصل، ووقفت إلى جانبه، فمالت الكفة..

وقالت ابتسام:

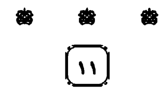
ـ سوف أسعى.. إن لدي عدداً من الصديقات من قريباتها، وسوف آتيك بالجواب إن شاء الله..

طغت الفرحة على وجه عاصم، وكاد أن يفقد اتزانه وهو يقفز قائلاً:

ـ هكذا تكون الأخت المخلصة، وإلا فلا . .

وإذ وجدت الأم نفسها محاصرة فيما يشبه الأمر الواقع، قالت بعد تردد:

ـ حاولي يا ابتسام، ولكن، ليكن الأمر محصوراً في أضيق نطاق، فإنه لم تمض سنة بعد على وفاة أبيك!



انطلق بسيارته البونتياك حوالي العاشرة صباحاً، فما إن قطع جانباً من شارع النبي جرجس؛ الذي يربط دورة المستشفى القريبة من الدار، بشارع نينوى جنوباً، حتى فوجىء بحشد كبير من الناس، وبأصوات تنطلق كقصف الرعد، وصرخات تتلوى في الفضاء مصعدة، لكن ما تلبث أن تتلاشى في المدى.

إنها تظاهرة بالتأكيد، قال في نفسه، ورغم أنه لم يشترك في واحدة منها، فإنه يعرفها جيداً هذه التظاهرات؛ التي كانت تفاجئه بين الحين والحين وهو ذاهب إلى المدرسة، أو عائد منها . . تدفقات من الصراخ الجماعي؛ الذي يتفجر في مكان من البلد كهزيم الرعد، تجيبه أحياناً تدفقات من الرصاص . . ثم ما تلبث الأصوات أن تقترب، فتزداد وضوحاً . . وهي تقترب، كان يرتجف لها قلبه، ويحس بخوف مجهول يدفعه إلى عد الخطى متراجعاً صوب أقرب زقاق لكنه ما يلبث أن يغيب مبتعداً . . لكنه أكثر من مرة، شجع نفسه على أن يقف عند جانب من الرصيف، ملتصقاً بباب مقفل لهذا المحل أو ذاك، لكي

يشهد ـ عن قرب ـ هذا الانسياب الخرافي المخيف؛ الذي كانت ترافقه دائماً وتتصادى معه، أصوات أبواب المحلات المطلة على الشارع، وهي تجر بعنف، فتحدث صريراً حاداً . .

وما أكثر ما كانت المدينة تقذف بأبنائها؛ لكي يقارعوا السلطات بصرخاتهم،ما أكثر ما كانت تتدفق حشود المتظاهرين عبر الشارع نفسه: نينوى، قادمة من أقصى الطرف الغربي للمدينة عند رأس الجادة، لكي تندفع متحدية رشاشات الشرطة وسياراتهم المصفحة، صوب شارع غازي، منعطفة باتجاه مركز الشرطة العام حيناً، أو المتصرفية حيناً أخر، وقد تقف قبالة دار الضباط، لكي تسمع غضبها لحشود العسكريين؛ الذين كانوا كثيراً ما يبتسمون ويلوحون بأيديهم . . لقد كانت تلك هي لغة التفاهم بين الجيش والشعب؟ . . أما اليوم، فلا يدري أحد كيف سيكون الحوار.

وهو يتذكر جيداً كيف أنه كان يتأرجح لدقائق ـ والخط الأول من المتظاهرين يقترب منه ـ بين الرغبة في الفرار وبين الاندماج معهم، عَلَّه يجد هناك أمنه المفقود، لكنه، كان يجد نفسه ـ في معظم الأحيان ـ مسمراً في مكانه، لا يقدر على الاجتياز.

إنه قدر المدينة أن تبعث بشبابها وشيوخها؛ لكي يجعلوا من شوارع البلد برلمانهم الحقيقي، بعد إذ عجز برلمانهم القابع في بغداد عن أن يوصل صوتهم الحقيقي إلى مسامع السلطة . .

اقترب أكثر، فوجد أن من المستحيل عليه اختراق الحشود بسيارته، ومواصلة طريقه صوب المعمل، في أقصى الجهة الأخرى من المدينة.

أوقف سيارته جانباً، وغادرها لعدة دقائق؛ كي يتبين جلية الأمر . . صفعه أول نداء: «ما كو زعيم إلا كريم» . .

ينفرد رجل ما بإطلاق الصرخة، فترد عليه مئات الحناجر مرددة العبارة نفسها: «ما كو زعيم إلا كريم». .

كانت الحشود تنطلق في الشارع نفسه صوب شارع نينوى؛ الذي يتوسط البلد، وما لبث أن رشقته صرخة أخرى: «عيني كريّم للأمام، ديمقراطية وسلام». . وترد عليها مئات الحناجر، كالصدى؛ الذي ينشطر بالتوالد الذاتي، فيغدو النداء الواحد ألف نداء: «عيني كريّم للأمام، ديمقراطية وسلام». .

والتفت ذات اليمين وذات الشمال، فإذا بأعداد أخرى من الناس تتدفق من الأزقة المجاورة، لكي تصب في بحر الشارع الرئيسي، فترفد المظاهرة بالمزيد.

وكان الرجل منهم إذا أراد أن يطلق هتافاً، استدار بظهره، وتحرك بهدوء راجعاً إلى الوراء، ورفع يديه، ثم فرشهما في الهواء، وأطلق صرخته، فترد عليه الحشود؛ التي تقف قبالته بالصرخة نفسها، وهي تطوح أذرعتها في الهواء في فورة حماس، يجعلها تنسى عرقها وإعياءها والجهد المضاعف؛ الذي ينصب على حناجرها، وتستبدل بهذا كله نوعاً من الغبطة المتوهجة؛ التي يمكن أن تنبثق عن إحساس بالتحدي، في مواجهة خطر قريب.

وانطلقت صرخة أخرى أكثر قرباً هذه المرة: «الموت للخونة والمتآمرين». . ثم ما لبث النداء أن غدا ألف نداء. .

وقال عاصم في نفسه: ليس لك إلا أن ترجع، فإنه ليس يوماً كبقية الأيام، وفكر، وهو يتراجع باتجاه موقف سيارته، سأحاول من شارع ابن الأثير عند الطرف الغربي للمدينة، وقال: يمكن أن أنزلق من هناك بسهولة إلى باب الجديد، فشارع الغزلاني. .

لم يكن المعمل هو الذي يناديه في حقيقة الأمر، ولكنها سلمى، إنه غير مستعد أن يقضي ليلة أخرى محاصراً بالهم والأرق، لقد كان يوم أمس صعباً حقاً، وقد تقطعت ـ عبر دقائقه المكتظة ـ خيوط وخيوط، وسوف أعرف اليوم كيف أعيد حبكها من جديد، فليس هيناً علي أن أجعلها تفلت مني.

وهو يفتح باب سيارته؛ لكي يدلف إليها، أمسكت بكتفه قبضة قوية، وجذبته إلى الشارع ثانية.. التفت برد فعل امتزجت فيه الدهشة بالخوف، فإذا به قبالة أحد زملائه في الإعدادية.. صرخ: ـ يونس سعيد؟!

أجاب هذا وهو يسحب عاصماً إلى حافة الرصيف:

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وهو يسترد روعه أجاب:

ـ كنت في طريقي إلى المعمل، فاعترضتني..

قاطعه يونس محاولاً أن يضفي على نبرته الجادة طابع المزاح:

ـ الناس الشرفاء يحاصرون بالتآمر والخيانة والموت، وأنت ذاهب إلى معملك لتنمية أرباحك؟

قال عاصم وقد فوجئ بهجومه المباغت:

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

أجاب يونس، وهو يشير إلى الحشود المتدفقة:

ـ تشاركنا يا أخي!

ـ بم؟

ـ وتسألني؟ باستنكار المؤامرة على الجمهورية والزعيم طبعاً!

تساءل عاصم وهو يكبت انفعاله:

ـ أية مؤامرة هذه؟

قال يونس بصوت متيبس:

ـ يبدو أنك قد صببت على أذنيك شمعاً.. ألا تسمع الهتافات؟ إن هناك مؤامرة كبيرة تستهدف الجماهير المسحوقة في المدينة، وتهدد مكاسب جمهوريتنا الفتية بالخطر..

وكمن يجد قطعة طافية من الخشب، وهو يعاني من الغرق تذكر عاصم:

ـ إنني أعرفك جيداً، لا تهمك هذه المسائل!

قال يونس وهو يشدد على مخارج الأحرف:

ـ ولكنها اليوم تهمني.. ليس شريف من لا يهتم لأمر الوطن..

طرق سمعهما صوت زخة رصاص قادمة من مكان بعيد، وسرعان ما أجابتها زخة أخرى.. وشيئاً بعد شيء ابتعدت التظاهرة، متوغلة أكثر في شارع النبي جرجس، وابتعدت معها أصوات الحناجر الهاتفة، ولكن واحداً منها كاد يصل إلى قريب منهما، وهو يتلاشى في الهواء.. وتوهم عاصم أنه يسمع كلمة (حبال)، ترى ماذا يقول صاحبها؟!

وواصل يونس:

ـ ليس هذا يوم تنمية الأرباح.. لقد خرج المال من أذنيك، أم تراك كما يقول المثل: " كلما كثرت ازدادت حلاوة "؟

قال عاصم وهو يكبت انفعاله مرة أخرى:

ـ ليس هذا أوان تبادل الاتهامات. .إننا لم نلتق منذ أكثر من سنتين. . أهو أسلوب لائق تستقبلني به؟!

قال يونس:

ـ ولكنها قضية الشعب. . و. .

قاطعه عاصم:

ـ ولكنني أعرفك جيداً. . ألم نقض أربع سنوات في صف واحد؟

ـ لم يكن يتاح لنا في العصر الملكي البائد أن نعلن عن مواقفنا. .

ـ ولكن، الكثير من زملائنا أعلنوا عن مواقفهم، فمنهم من اضطهد، ومنهم من خسر دراسته، لا بد لكل شيء من ثمن. .

ووجدها يونس فرصة مناسبة؛ لكي يهاجم ثانية من الثغرة السابقة:

ـ إنني أسلم بهذا؛ لأنك آخر من يتكلم عن أثمان الأشياء!

ـ ليس هذا ما أقصد.

ـ أتظن أن قضية الوطن سلعة تباع وتشترى؟

ـ لا تحاول أن تلف وتدور. . قل لي بالضبط ماذا تريد؟ فإن أمامي مشاغل تقتضي أن أسرع إليها. .

ـ أثمة مشغلة أخطر وأهم من الدفاع عن مكاسب الجمهورية؟ إن الشواف يتآمر على البلد، ومن ورائه كل الرجعيين عملاء الإمبريالية. .

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع. . ولا علاقة لي به. .

أجاب يونس بخبث:

ـ وسلمى؟

صرخ عاصم كمن لدغ على حين غفلة:

ـ ماذا؟

واصل يونس بالنبرة نفسها:

ـ أليست خطيبتك؟

صرخ هاشم مرة أخرى:

ـ لا دخل لك في هذا الأمر.. أرجوك..

ـ لا دخل لي؟

أطلق ضحكة قوية وواصل:

ـ ليست مسألة شخصية على أية حال..

ـ ماذا تقصد؟

أجاب يونس كمن يكشف عن جريمة يحيط علماً بإبعادها:

ـ لقد شوهدت يوم أمس تصلي هي ووالدها وراء هاشم عبد السلام!

وأحس عاصم أنه يغرق من جديد، وتذكر ثانية أن الهجوم خير وسيلة للدفاع فقال:

ـ يونس.. أتذكر حادثة اعتصام الطلبة في الثانوية الشرقية قبل أكثر من سنتين؟

أجاب يونس بصبر نافد:

ـ لا ترجع بنا ثانية إلى الوراء، إن الزمن يتحرك، وإن الجماهير تتحرك هي الأخرى، وسوف تجد أنه لن يقف في طريقها شيء..

تشبث عاصم بموقفه:

ـ ولكنه قضية الجماهير أيضاً. ذلك الاعتصام.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شيء، ولكني أتذكر كيف أننا ـ أنا وأنت ـ كنا أول المتسللين خارجاً، بينما ظلّ الطلبة يواصلون اعتصامهم حتى عصر اليوم التالي..

ـ ذلك أمر مضى عليه زمن طويل..

ـ وإنك أنت الذي همس في أذني بفكرة التسلل من ثغرة في الجدار الشمالي.. لا زلت أذكر كيف أنك بررت المحاولة بقولك: ما لنا ولنوري السعيد، لسنا نحن المكلفين بإسقاطه.. تلك مهمة الجيش!

شرد يونس، وهو يتصنت إلى أصداء الصرخات القادمة من أماكن بعيدة، بينما واصل عاصم:

ـ وقلت كذلك: إن من الجنون أن يتصور طالب ما أن بمقدوره أن يفعل شيئاً..

قال يونس بنبرة زاجرة:

ـ كنا يومها صبياناً بعد، أما الآن..

قاطعه عاصم وهو يبتسم:

ـ الآن، نستطيع أن نمارس الدور نفسه..

صرخ يونس:

ـ ماذا؟

أجاب عاصم وهو يسعى إلى الاحتفاظ بهدوئه قدر الإمكان:

ـ ننسحب ونتفرج عليهم وهم يصطرعون.. إنه ليس بمقدورنا اليوم أيضاً أن نفعل شيئاً..

ومن أجل أن يستعيد زمام المبادرة، عاد يونس إلى الهجوم ثانية:

ـ تنسحب؛ لكي تنفخ جيوبك بالمال.. أما أنا، فإنه ليس لدي شيئاً أخسره. إن انتصاراً بالكثير، ضروري بالنسبة لي، وبالنسبة لكل الذين لا يملكون شيئاً.. لقد وعدتهم بالكثير، وسوف تفي بوعدها، والذراع التي ستقف بمواجهتها سوف تكسر..

قاطعه عاصم، وهو يحس أنه لم يعد قادراً على التواصل مع زميله القديم:

ـ ولكن..

صرخ يونس:

ـ لماذا تسعى إلى تغيير الموضوع؟ لقد قلت لك: إن خطيبتك وأباها شوهدا ظهر أمس يصليان وراء واحد من أعداء الجمهورية.. رجل دين يمتلئ قلبه حقداً..

ووجد عاصم نفسه ينزلق وراء نزعته القديمة المتأصلة:

ـ وما علاقتي أنا بالأمر؟

صرخ يونس مرة أخرى:

ـ أليست خطيبتك؟

ـ هدئ من روعك يايونس، فليس ثم مبرر للصراخ..

أشاح يونس برأسه صوب الجنوب، كمن يحاول أن يلتقط آخر النداءات القادمة من هناك، قبل أن تبتعد التظاهرة، وتتلاشى الأصوات.. ثم ما لبث أن عاد لمجابهة عاصم، ولكن بهدوء أكثر:

ـ كيف تسمح لها بالتآمر على الجمهورية؟ أليس لك تأثير عليها؟ أما كان بمقدورك أن تكفها عن الانسياق في هذا الطريق؟

قال عاصم متراجعاً أكثر:

ـ ولكنها ذهبت بصحبة أبيها، وليس بصحبتي!

أجاب يونس وقد بدأ يشعر أنه يزداد تمركزاً في موقعه:

ـ بصحبة أبيها أو بصحبتك، إنها خطيبتك على أية حال، وإنك المسؤول عن تصرفاتها، وقد كان بمقدورك أن تكفها عن هذا العبث. .

وتحت وطأة إحساس مؤلم بالقهر، صرخ عاصم:

ـ تجرؤ على تسمية تلك الفريضة المقدسة عبثاً؟

أجاب يونس:

ـ لا أعني الفريضة بالذات، ولكنها الصلاة وراء ذلك المتآمر!

واصل عاصم منطلقاً من الإحساس نفسه، ممتزجاً هذه المرة بشيء من التحدي:

ـ أتريد الحقيقة؟ إنني سوف أشجعها الجمعة القادمة للذهاب الى الصلاة في أي مسجد تشاء، حتى لو كان هاشم عبد السلام نفسه!

قال يونس بنبرة مرتجفة:

ـ هكذا؟

ـ استمر عاصم: بكل تأكيد، إن بمقدوري أن أمنعها من عشرات الأشياء. . إلا هذه. .

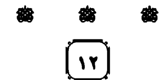
ـ ولكنني أخشى أن تندم على فعلتك. .

تساءل عاصم وهو يحس بخطر ما يأتي من مكان بعيد. . زاوية مجهولة في صيرورة الأحداث. . وأن زميله القديم، قد يكون شيئاً آخر بالكلية، لا تربطه أية عاطفة، أو ذكرى مشتركة:

- ماذا تقصد؟

أجاب يونس وهو يقفز إلى الشارع يعدّ الخطى؛ لكي يلحق برفاقه المتظاهرين:

- سوف ترى؟!



أدار عاصم مقود سيارته، وعاد ثانية عبر الشارع نفسه؛ لكي ما يلبث أن ينعطف عند دورة المستشفى غرباً، مجتازاً شارع ابن الأثير صوب رأس الجادة، عله يجد من هناك منفذاً يوصله إلى باب الجديد، فشارع الغزلاني.

إنه كان يتحرق شوقاً للقاء خطيبته وها هو لقاؤه بيونس قد زاده اشتياقاً.. لقد استيقظ صباح هذا اليوم يسيطر عليه إحساس مرير بأن سلمى قد تفلت منه وأنه ربما سيخسرها.. ولكن هذا الإحساس بالفقدان قد تضاعف الآن..

إن ثمة قوة جديدة تتدخل هذه اللحظات.. قدر غامض يتهدده بضياع كل شيء.. وسلمى تعني بالنسبة إليه كل شيء.. فماذا لو ضاعت، وأحس أنه يضغط أكثر فأكثر ودون وعي منه على البنزين، فتزداد السيارة إسراعاً، فاضطر إلى الإبطاء بعض الشيء، وهو ينساق في تيار من الوعي المتناقض، لكنه استطاع أن يلتقط منه خيطاً أخذ يزداد بمرور الوقت تفرداً ووضوحاً.. إنه - إذا صح ما قيل عن وجود حركة أو ثورة ستنفجر عما قريب، بمواجهة الزعيم وأنصاره من الشيوعيين - فإنه يتمنى من أعماق قلبه أن تنتصر هذه الثورة.. فبدون ذلك، قد يفقد سلمى إلى الأبد!

ولم يخطر على باله البتة المصير؛ الذي ينتظر ثروته كلها، المعمل، والبيت، والأسهم، والسيارة.. الآن، بعد ما سمعه من صديقه ـ حيث قطعت الأحداث القاسية كل الروابط القديمة ـ لا يفكر سوى بشيء واحد، أن يحتفظ بخطيبته، وأن يأوي إليها، في عالم يبدو أنه لم يعد يحتمل ثبات الأشياء والقيم والموجودات في أماكنها.

مرَّ من جوار ملعب الإدارة المحلية، حيث عقد أنصار السلام اجتماعهم أمس؛ الذي فجر كل هذه المتاعب.. ومن يدري؟ فقد تلد الأيام والساعات القادمة متاعب أشد هولاً.. وسرعان ما سيطرت على ذهنه الفكرة؛ التي حاول منذ يومين أن يقنع بها خطيبته: الرحيل إلى بغداد ريثما ينجلي الموقف عن حقيقته، وتتضح الأشياء عبر ذوبان دوامة الضباب الرمادية الكئيبة هذه، والتي أخذت تلف المدينة ومن فيها بلا رحمة، أو شفقة..

آه، قالها من أعماق قلبه، لو تستجيب لفكرة الرحيل هذه، فما هي إلا أيام حتى يتضح كل شيء، ودهمه كدر خفي وهو يتذكر كيف أن سلمى ترى في الرحيل هروباً غير مبرر ولا مقبول.. وانتصب قبالته ـ كنذير السوء ـ شبح صديقه القديم يونس سعيد، ترى ما الذي في نيته أن يعمل، أم أنه مجرد كلام يقال؟ وحاول أن يطرد هذا الشبح؛ الذي تبدى الآن مجرد هيكل عظمي، لا يكسوه لحم، ولا يشده عصب، ولا يجري دم في خلاياه.. هيكل عظمي يصعب التواصل معه، بل يبدو مستحيلاً.. وكلما حاولت أن تثير فيه عاطفة ما، أو ذكرى قديمة، كلما سعيت أن تحرك فيه انفعالاً أو شوقاً ازداد تصلباً وكراهية، وازداد تعبير عينيه الغائرتين المفزعتين حقداً ورعباً..

وأحس بشيء من الارتياح وهو ينعطف شرقاً باتجاه دورة باب الجديد، ومعنى ذلك أن شارع الغزلاني قد غدا على بعد خطوات منه، وما هي إلا أن ينطلق فيه؛ لكن ما يلبث أن يجد نفسه، بعد دقائق معدودات في دار عمه..

ولدهشته، لم يكد ينتبه لاثنين من الشباب المسلحين وهما يطلبان منه التوقف، والرجوع بسيارته من حيث أتى..

بعد لحظات فحسب، أتيح له أن يمعن النظر في دورة باب الجديد، وأن يرى حشوداً أخرى من الجماهير تتدفق صوب شارع الفاروق القديم، قادمة من شارع الغزلاني، وذي النورين، والصديق، متدفقة من كل الأزقة المفضية إليها..

أترى هذه التظاهرة التي التقى بذيولها في شارع النبي جرجس قد أطلت عليه برأسها؟ لا يمكن، قال في نفسه..: ليس بهذه السرعة.. لكنه ما لبث أن تلقى الجواب.. لقد كانت الصرخات تقصف السمع بكلمات أخرى هذه المرة.. كلمات مغايرة تماماً لما سمعه هناك،واستطاع بصعوبة أن يلتقط بعض مفرداتها: العروبة، الإسلام، الوحدة، وكان يدوّم فوق الحشود نداء هادر، أخذ يتردد باستمرار: سقوط الزعيم!

تناوحت المشاعر في صدره وهو يلوي مقود السيارة؛ لكي يبعد بها قليلاً عن الجماهير المتدفقة، حيث طلب إليه الشابان المسلحان.. الذهاب إلى مكانٍ مجهول، وقالا بنشوة عارمة تغمر كيانه، وبأنه ـ ها هنا ـ سيعرف كيف يكون الرد على يونس ورفاقه، وتمنى لو يلقي بنفسه في أتون الحشود، وأن يصرخ معهم، وزاده حماساً تخيله سلمى

وهي تراه من مكان ما.. مكان مجهول.. لكنها تراه على أية حال، يقاوم، ويرفض، ويمارس دوراً كانت تتمناه دون جدوى.. لكنه ما إن طرق أسماعه ذلك النداء المخيف بسقوط الزعيم، النداء المدوّم فوق رؤوس الجماهير، والمتلاحم مع دوامة الضباب الرمادية، التي تلف المدينة، والحياة، والأشياء.. حتى أجفل بعض الشيء، وأحس بأنه يزداد انكماشاً، وسيطر عليه ـ لدقائق ـ إحساسه القديم، فإنه ليس من السهولة بمكان أن يلقي بنفسه في خضم أناس قد تبدت هويتهم كاملة الآن: مجابهة السلطة، والثورة عليها.. فمن يدري؟ لعلهم سيساقون في وقت قريب إلى مصائرهم المفجعة ما داموا قد اختاروا أن يفتحوا على أنفسهم جبهتين في آن واحد، الشيوعية.. والسلطة!

تراجع بسيارته عشرات من الأمتار، وتردد للحظات بين أن يمضي عائداً إلى داره عبر شارع ابن الأثير، وبين أن يقف، عن بعد، لكي يلقي نظرة ـ ولو لدقائق معدودات ـ على هذا؛ الذي تشهده المدينة في جانبها الآخر! وقال في نفسه: كنت أفعلها قبل سنوات، فلماذا لا أفعلها اليوم؟ إنه ليس هيناً أن أستل نفسي من المشاهدة القريبة من الحدث، وأرجع، لكي أنزوي ممزقاً في البيت.. ومن يدري؟ فلعل الحشود تبعد قليلاً وهي توغل في شارع الفاروق، وعندها سينكشف الطريق ثانية إلى الغزلاني.. إنني يجب أن ألتقي بسلمى هذا اليوم بالذات، وأن أحكي لها عن كل شيء..

صعد بسيارته على رصيف الشارع الخالي الذاهب غرباً باتجاه المحطة، وتأكد جيداً من إقفال أبوابها، ويمم وجهه صوب دورة باب الجديد.

كانت الجماهير، لا تزال تتدفق من كل مكان، وكانت الصرخات الهادرة لا تزال تتفجر بين لحظة وأخرى؛ لكي ما تلبث أن تتصدى في الفضاء وهي تنشطر إلى مئات النداءات.. وثمة ـ بين وقت وآخر ـ كانت سيارة جيب عسكرية ـ يمتطيها ضباط شبان ـ تشق طريقها بصعوبة، ميممة ـ هي الأخرى ـ شمالاً عبر شارع الفاروق نفسه، وكان الضباط يلوحون بأيديهم، فتجيبهم النداءات المنتشية فورة وحماساً..

وإذ أصبح على بعد خطوات من حافة الجماهير الزاحفة، أطل برأسه يساراً، فتأكد له أن مقدمة التظاهرة كانت قد توغلت بعيداً في شارع الفاروق، وأخذ يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً، قبل أن يتخذ قراره النهائي بالمشاركة.. فها هو الآن يقف على الخط الزمني والمكاني الفاصل بين أن يكون معهم وبين أن يظلّ متفرجاً. كان يحس أنه يقف تماماً عند نقطة انعدام الوزن بين الشد والجذب، وما من مرة وجد نفسه إزاء تظاهرة وجهاً لوجه، وأحس بالعناء والتمزق؛ اللذين يحس بهما اليوم، وكان يكافح؛ لكي يتشبث بما يرجح ميله صوب هذا الموقف أو ذاك، فما وجده بسهولة.

لقد كان خيال سلمى يستحثه على الإقدام، على تجاوز التردد والاندماج مع الجماهير وكأنه يراها، هناك، تشير إليه بكلتا يديها، تدعوه، تحثه، ويهمّ فعلاً بأن يخطو خطوته الحاسمة، فما تلبث الصرخات المطالبة بسقوط الزعيم أن تجعله يقف في مكانه مشلولاً عاجزاً عن الحركة.. فإنه ما خطر على باله يوماً أن يعرض مصيره للخطر، ويقف قبالة السلطة وجهاً لوجه، وهو يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا..

وما يلبث شبح زميل دراسته يونس سعيد أن تنتصب قبالته عارياً من اللحم والدم والوجدان.. مهدداً متوعداً.. فيتمنى لو يرد عليه، لو

يكسر ذراعه المتصلّبة كالحديد البارد. . لو يقنع هذه الجماهير المتشبثة بحماية الإيمان والمحبة من الدمار والتفكك، الساعية لوقف المأساة القريبة على بعد أمتار: تجريد الإنسان وتحويله إلى هيكل أصم متشابه، صلب العظام، بارد كالفولاذ، لو يقنعها بأن تمضي معه صوب التظاهرة القادمة من الجهة الأخرى، لكي يبحث عن زميله القديم، فيحطم جمجمته قبل أن يقع المحذور!

وعلى حين غفلة، شعر كما لو أن الحركة الانسيابية للجماهير الموغلة في شارع الفاروق، قد تعرضت لهزة ما. . لنوع من الارتباك. . وطرقت سمعه نداءات وأصوات أخرى، بإيقاع آخر غير الذي اعتاده. . وعبثاً، حاول أن يمد عنقه باتجاه النهايات القصية للشارع؛ لكي يعرف ما الذي حدث على وجه التحديد، وكل الذي استطاع أن يلتقطه بصعوبة، منظر ألسنة من النار ودفقات من الدخان الأسود الكثيف تندفع من مكان ما، هناك على يمين الشارع. .

ما الذي يجري هناك؟ ارتفعت التساؤلات من هذا الرجل أو ذاك. . ما الذي يجري هناك؟ تساءل هو الآخر، فما من أحد قدر أن يخمن، ثم ما لبثت زخات من الرصاص أن فرقعت في مكان ما في البلد، فأجابتها زخات أخرى.

ولدقائق، توقف اندفاع التظاهرة، وأحس عاصم كما لو أنهم تسمروا في أماكنهم لساعات. . وقال في نفسه: قد يكون الأمر أخطر بكثير مما أتصور. . وجرفه حنين لا يقاوم في أن يكون هذه اللحظة آمناً في بيته، بعيداً عن هذا اللعب المخيف بالأعصاب، ولكن، كيف؟ وها هي رشقات الرصاص تنصب هناك، شمالاً، في مكان ما، قد

يجعل من الصعوبة بل من المستحيل أن يرجع ثانية إلى البيت.. ومرة أخرى، تذكر سلمى، وتمنى لو تنفتح ثغرة في باب الجديد؛ لكي يمرق منها بسيارته صوب شارع الغزلاني، فيأوي إلى دار عمه، وينتظر هناك حتى تتكشف الأمور على مداها.. وخاطب نفسه كمن يؤنب طفلاً صغيراً: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أما كان الأولى أن تقفل عائداً ـ لحظة لقائك ـ بذيول التظاهرة الأولى؟ وسيطر عليه إحساس ثقيل بأنه قد لا تتاح له العودة إلى داره أبداً، وأن الخوف، سيحيط به من كل مكان، وأنه ليس بخارج منه..

وسرعان ما خطر له أن ينسحب قليلاً باتجاه شارع الصديق؛ لكي يكون بعيداً عن ردود الفعل؛ التي قد تزداد انفجاراً بعد لحظات، قريباً من سيارته الجاثمة على الرصيف.. وأحس بشيء من الارتياح لهذا الخاطر، واستعاد شيئاً من هدوء أعصابه وهو يتراجع، دون أن يجعل أحداً يحس به، صوب شارع الصديق، وعندما انفصل تماماً عن الكتلة البشرية؛ التي كان قريباً منها، نظر قليلاً، فتأكد لديه بأنها بدأت تتحرك ثانية، وأنها تستعيد الآن انسيابها في شارع الفاروق.. وتذكر لدهشته أن هناك شارعاً خلفياً يحاذي المحطة، يمكن أن يقوده بأمان إلى الغزلاني.. ولكنه قال في نفسه: سأنتظر قليلاً، وبعدها، سأقرر فيما إذا سأرجع إلى البيت أو أمضي إلى دار عمي..

وتذكر الفكرة الملحة؛ التي سيطرت عليه عبر اليومين الأخيرين، فمال إلى الموقف الثاني، وتشبث به.. يجب أن أقنعها بالرحيل إلى بغداد.. يجب..

❁ ❁ ❁

١٣

كانت الساعة تشير إلى الثالثة إلا ربعاً مساء، عندما دق الجرس في دار عبد الرحمن الشيخ داود. . . هرعت سلمى؛ لكي تفتح الباب الخارجي، مجتازة درج الشرفة الضيقة المطلة على الحديقة المتواضعة. .

ـ عاصم؟

خطا هذا نحو الداخل، ووقف للحظات؛ لكي يستمرئ إحساساً لذيذاً بالأمان، كمن يلقي مرساته بعد ساعات من الصراع مع الموج والعاصفة. . . وتنفس بعمق وهو يقول:

ـ سلمى، إن يوماً من الفراق ليعني عندي قرناً من الزمن، أجابت وهي تبتسم مخفضة عينها:

ـ ها قد عدت إلى مبالغاتك!

ـ ولكنه ليس يوماً كالأيام!

حدق في عينيها، فما رآهما يوماً أعذب ولا أحلى من هذا اليوم. . بحيرتان عميقتان كانتا فيما مضى تشعان حباً وحناناً. . أما اليوم ـ وسط الدوامة التي تلف المدينة من أقصاها إلى أقصاها ـ فإنه يلمحهما تفيضان توهجاً. .

ـ سلمى. . ناداها بصوت خفيض. .

فرفعت إليه عينيها قليلاً بما جعله يزداد حرصاً على الحياة، وتشبثاً بها. .

ـ إنني خائف يا سلمى.. إن ما ستشهده المدينة عبر الأيام، وربما الساعات القادمة، لمخيف حقاً..

وإذ كان العشق يدفع بعض المحبين والهائمين إلى الموت والشهادة، كان يجرف عاصم بالاتجاه الآخر، محبة الدنيا، والتشبث بها.

ـ ولكن، أية حياة هذه؛ التي تجعلنا نخاف؟

تساءلت سلمى..

أجاب دون أن يحس بأي قدر مما قد يعتبر في مواقف كهذه خجلاً أو عاراً:

ـ معك أنت، فإنها أثمن من أن يضحى بها..

ومرة أخرى، أعادتها كلماته إلى ألمها القديم.. مرة أخرى، بدأت تحس بأنه يمسك بنصل حاد، لكي يقطع الحبال؛ التي تشد الجسر المتأرجح.. أما هو، فقد وجد نفسه يندفع، بعد المعاناة؛ التي عاشها ضحى اليوم، لساعات طوال، في رد فعل جارف تجاه كل ما هو جماعي.. كل ما يتحرك في حيز الناس..تجاه زمن الآخرين ومكانهم.. إنه الآن، يتمنى أن يظل معها منفرداً، أن يذهب معها وحيدين.. أن يرحل إلى أقصى مكان، تاركاً وراءه المدينة، والزمن، والمكان، مخلفاً التظاهرات والأصوات المدوية، والمقاهي المحترقة، وزخات الرصاص..

وسمعها تقول وكأنها تقف في الحافة الأخرى من العالم الذي يتوق إليه:

ـ أنا وأنت؟ أليس كذلك؟ والآخرون ياعاصم؟!

أجاب وهو يحس بأن أجنحة النشوة أخذ يتطاير منها الريش، وأنه قد يهوي عما قريب:

ـ دعيهم يدبرون أمرهم بأنفسهم، وتعالي؛ لكي ندبر أمرنا معاً . .

ـ أندعهم يحاصرون، ويتعذبون، وقد يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم . . ونهرب؟

ـ أي حصار هذا، وأي عذاب؟ إن الضباط الآن يتحفزون للثورة على الوضع كله، وقد رجحت الكفة، ولن يكون بمقدور أحد بعد اليوم، أن يحاصر الناس أو يقتلهم . .

ـ وهل أنت على يقين من ذلك؟

قال وهو يحس تماماً أنه ليس ثمة يقين، ولكن قد يقرّبها ذلك منه . . قد يعيدها ثانية إليه، قد يمهد الطريق؛ لكي يقول ما جاء من أجله . .

ـ بكل تأكيد . .

ثم نظر إليها؛ لكي يرى وقع كلماته على خارطة وجهها المعبر، ثم واصل:

ـ فماذا يعني بقاؤنا هنا، سوى أنه نوع من الفضول . . إن الضباط هم الّذين سيحسمون الموقف، ولن نزيد أو ننقص في الميزان شيئاً؟ . .

آلمها كلامه كما تعودت في الأيام الأخيرة أن تتألم، وكان قد سيطر عليها منذ صلاة يوم أمس، إحساس غامر ممتلئ، نشوان، بأنه يتحتم على الإنسان رجلاً كان أم امرأة، أن يتخذ موقفاً . . أن ينتمي لجهة ما، موقع محدد متميز على خارطة الحياة الدنيا ذات المسالك المتشعبة، أن يحمل عقيدته ويجابه بها العالم!

وها هو خطيبها يجيء من أقصى المدينة؛ لكي يطلب منها أن تتخلى عن هذا الإحساس؛ الذي منحها ـ ربما لأول مرة ـ قيمة كبيرة تليق بها كامرأة، تنتمي لسلالة طويلة عريقة من النسوة اللواتي قارعن ـ بكلمات الله ـ مكائد الشيطان، وجابهن ـ بسلاح الإيمان ـ أضاليل الكفر، والتفكك، والرذيلة، وها هي ذي الفرصة قد حانت؛ لكي تحصل على هويتها، وتنطلق في الطريق الطويل إلى غايته. . لقد علمها هاشم عبد السلام ـ قبل يوم واحد ـ بأنها ليست أقل من الرجل، وأنه ليس بالخبز ولا بالحب وحده يحيا الإنسان.

قالت بصوت يرتجف انفعالاً:

ـ ومن يكون وراءهم إذاً؟!

ـ هكذا؟

قال عاصم بصوت لا يكاد يسمع. . من يكون وراءهم؟ وتذكر أنهما بقيا أكثر مما يجب على الممر المفضي إلى الدار، وأن عمه قد يتساءل عن هذا التأخر. . وانتهزها فرصة؛ لكي يغير وجه الحوار، علَّهُ يجد في عمه سنداً لما جاء يسعى من أجله، فيعيد الكرة. .

قال مبتسماً:

ـ لقد أطلنا الوقوف هنا، لعل أباك ينتظرنا. .

لم تجبه، وفسحت أمامه طريقاً، ودلفت في أعقابه. .

كان عبد الرحمن قد سئم الاستمرار في مطالعة كتاب عن تاريخ الاستراتيجية في العالم، فوضعه جانباً، وراح يقضي الوقت في تنضيد خرز مسبحته الحمراء.

ـ ما وراءك يا عاصم؟

قالها وهو يشير على صهره أن يجلس قريباً منه على الأريكة؛ التي تمتد؛ لكي تحيط بالصالة الداخلية من جهاتها الأربع، يتصدرها خط من الوسائد المتراصة..

ـ أشياء كثيرة يصعب وصفها..

ارتمى على الأريكة بجوار عمه، وهو يفك ـ قليلاً ـ ربطة عنقه؛ لكي يتنفس بسهولة أكبر.

تساءل عبد الرحمن:

ـ هيا بنا إذاً فإن بيننا وبين الإفطار ساعات طوال أحب أن أقضيها في السماع..

وقبل أن يجيب عاصم، واصل عبد الرحمن:

ـ لقد غادرت الدار ضحى اليوم؛ لكي أتمشى قليلاً، فلم تسعفني قواي على أن أواصل الطريق إلى باب الجديد، أو أي مكان آخر وسط البلد.. إن الإنسان إذا جاوز الستين تحتم عليه أن يوقع تعهداً بالإقامة الجبرية، أليس كذلك يا سلمى؟

كانت سلمى قد تركت الصالة صوب المطبخ؛ لكي تعد طعام الإفطار، لكنها ما أن سمعت اسمها على لسان أبيها، حتى هرعت ثانية إلى هناك، كان القلق يستفزها من الداخل، فلا يدعها تستقر على حال..

ـ ماذا يا أبي؟

ـ لا شيء.. قال عبد الرحمن، ثم أردف: إن لدى عاصم أشياء كثيرة، ألا تودين أن تسمعي؟

أجابت:

ـ ومن للطعام، ولم يتبق على موعد الإفطار سوى ساعتين فحسب؟

قال الأب وهو يعود إلى تنضيد خرز مسبحته:

ـ لا . . هناك وقت كاف . . اجلسي . . ووجد عاصم أن الوقت قد حان؛ لكي يعرض مشاهداته الحافلة عبر هذا اليوم، ولكي ينفذ بعدها إلى اقتراحه، بعد أن يكون قد مهد الطريق، وكسب عمه . .

ـ إن البلد يقف الآن على فوهة مدفع، كما يقول المثل . .

ـ هكذا؟ .

قال عبد الرحمن وهو ينصت باهتمام . .

وواصل عاصم:

ـ ولا يدري أحد كيف ستجري الأمور عبر الأيام، وربما الساعات القادمة . . لقد شاهدت ـ بعيني ـ تظاهرتين كبيرتين هذا اليوم!

قال عبد الرحمن وهو يعقد خيط المسبحة:

ـ هذا ما كنت أتوقعه . . ولكن أين؟

ـ إحداهما في شارع النبي جرجيس تنادي بحياة الزعيم، والأخرى في شارع الفاروق تهتف بسقوطه!

تحفزت سلمى؛ لكي تقول شيئاً . . تسأل، أو تعلق، أو تضيف، لكنها آثرت الصمت.

وقال عاصم:

ـ ليس هذا فحسب، ولكني رأيت مقاهي تحترق، وسمعت رشقات الرصاص تتحاور بلغتها الخاصة!

تساءل عبد الرحمن وهو يتراجع؛ لكي يتكئ على الوسادة:

ـ وهل حدث صدام بين التظاهرتين؟

ـ لا أدري على وجه التحديد، لعل زخات الرصاص كانت إيذاناً بهذا الصدام. كنت أقف قريباً من دورة باب الجديد، وكان بمقدوري أن أتوغل لمعرفة ما يجري هناك في المقدمة، ولكنني قلت: إن صوت العقل يلح علي بالانسحاب وعدم التهور.. وأنت تعلم ياعماه، أن المرء في مثل أوضاع كهذه، يتحتم عليه أن يستجيب لنداء العقل.. لقد شبعنا من العواطف!

ومن حيث أنه أراد تسوية الطريق لطرح اقتراحه ثانية بالرحيل إلى بغداد، دفع خطيبته إلى أقصى الطرف الآخر، ومارس الخطيئة نفسها التي ظل يمارسها منذ أيام.. أما عبد الرحمن فتساءل:

ـ إذاً، فالوضع خطير..

ـ بأكثر مما تتصور.

ـ واللواء الخامس؟

أصبح معروفاً أنه سيفعل شيئاً، سيتحرك، سيتخذ موقفاً.

قال عبد الرحمن بانفعال:

ـ لقد ديس عليه بأكثر مما يجب، ولن يكون رد الفعل بعيداً..

ـ بل هو أقرب مما نتصور جميعاً..

تراجع قليلاً؛ لكي يتكئ هو الآخر على الوسادة:

ـ وثمة ما يقال: إن هناك محاولة لإلقاء القبض على كبار الشيوعيين، وأنصار السلام، ومؤيدي سياسات الزعيم..

غمرت وجه عبد الرحمن موجة من الاهتمام، وقالت سلمى:

ـ ليتهم يفعلون. .

وكأنما ذكرت خطيبها بشيء، فالتفت إليها قائلاً:

ـ بالمناسبة، فإن أحد زملائي عاتبني ظهر هذا اليوم. .

ـ على أي شيء؟

ـ قال بأنك شوهدتِ تصلّين يوم أمس وراء هاشم عبد السلام. .

تساءلت بانفعال:

ـ ومن هو هذا الزميل؟

ـ لا يهمنا ذكر الأسماء، إنما أردت. .

قاطعته:

ـ كيف؟ لابد أن يكون منهم. .

ـ منهم؟

ـ شيوعي، ملحد، يستفزه أن يرى جماهير الناس تؤدي الصلاة. .

ـ ليس هذا ما استفزه، ولكنه هاشم عبد السلام. .

ـ بل إن الصلاة. . صلاة فتاة في مسجد جامع هي التي استفزته. . إنهم يعتبرونه تحديا. . ومن يدري، فلعلهم إذا أتيح لهم الانتصار أن ينفذوا تهديدهم المعروف، بألا يبقوا في الموصل منارة واحدة يرتفع منها النداء إلى الله.

قال عاصم محاولاً أن يحتفظ ببروده:

ـ على أية حال، فإنه ليس هو الذي رآك. . ولكنه خبر نقل إليه. .

ـ الأمر سواء.. ولكن، كيف تبيح لنفسك أن يدس غريب أنفه في تصرفاتي الشخصية؟

ـ قال لي ساخراً: أليست خطيبتك؟ أن..

قاطعته بعصبية:

ـ وسكتّ على استفزازه؟

أراد عبد الرحمن أن يتدخل لتهدئة ابنته، لكن عاصم وجدها فرصة مناسبة للدخول في الموضوع؛ الذي جاء من أجله:

ـ إنني خائف ياسلمى.. خائف عليك وعلى أبيك..

صرخ عبد الرحمن وكأنه قد بوغت:

ـ أنا؟

أجاب عاصم وهو يربت على كتفه:

ـ لقد شوهدت أنت كذلك تصلي وراء هاشم عبد السلام.

قال محتداً، وهو يطوّح بيده:

ـ يا للسفلة، ولكن، مهلاً، فسيعرف الشواف وصحبه كيف يلقمونهم الدرس؛ الذي يستحقونه.

أجاب عاصم متحفزاً:

ـ من يدري؟ فإن الدولة كلها تساندهم، ولن يأمن أحد شرهم بحال، وبدلاً من تعليق الرجاء على توقعات لا يعرف أحد مجراها ومنتهاها، فإن الحل يكمن بأيدينا نحن!

قالت سلمى بشيء من السخرية:

ـ صوت العقل..

أجاب عاصم محاولاً أن يكتم غضبه:

ـ بكل تأكيد.

وتساءل عبد الرحمن:

ـ ماذا تقصد؟

الرحيل، قلته لكم يوم أمس.. الرحيل..

ـ إلى أين؟

ـ العاصمة طبعاً..

وواصل وهو يتشبث بفكرته:

ـ خمس ساعات من السفر تضعنا هناك آمنين مطمئنين.. وما هي إلا أيام، حتى ينكشف كل شيء، وحينذاك، يكون بمقدورنا أن نعود..

قالت سلمى بعصبية:

ـ والموصل؟

ـ لسنا مسؤولين عنها.. إن للبيت رباً يحميه.. عماه.. إن الأمر بيدك، وإن مسؤولية سلمى تقع على عاتقك.. إنني خائف عليكما بعد الذي شهدت وسمعت.. وما سيأتي، سيكون أشدّ هولاً..

نظرت سلمى إلى أبيها بتوسل.. إنه يستطيع بكلمة منه أن يرغمها على الإذعان لهوى خطيبها، لأثرته؛ التي يحاول أن يزينها بديكور العقلانية، والتي انكشفت الآن، فتبدت على حقيقتها أكثر من أية فترة مضت. وقالت في نفسها: هل العقل يأذن بأن يتخلى الإنسان عن أهله ووطنه إذا ما دهمه الخطر؟ ونظرت إلى أبيها بعينين ضارعتين مرة أخرى..

وكان عبد الرحمن يدرك تماماً ما يعتمل في نفس ابنته، وغرّته للحظة الفكرة؛ التي عرضها صهره، ولا سيما بعد حديثه عما يقال عنهما، وعن مسؤوليته عنها، ولكن، سرعان ما تبدى له الموقف على حقيقته.. إن أبناء البلد المؤمن، سيقفون جميعاً غداً، أو بعد غد، مدافعين عن إيمانهم.. شباباً ورجالاً ونساء وشيوخاً، وسيقف الضباط في المقدمة، واضعين أرواحهم على أكفهم بمواجهة رعب الشيوعية، وطغيان الزعيم.. وهو ضابط قديم، إن شرفه يحتم عليه أن يقف مع إخوانه متحدياً.. ألا يهرب على الأقل! فرك مسبحته بعصبية وهو يقول:

ـ كلا.. لن أرحل إلى بغداد!

فمن فرح تتخلله شرايين مترعة حزناً، وتضحية، وفداء، تحدرت دمعتان من عيني سلمى، وظلتا معلقتين هناك، بين الأهداب الطويلة السوداء..

وقال عاصم في نفسه ـ وهو ينكمش إزاء موقف هو أكبر بكثير مما توقعه ـ:

ـ لشد ما يزيدها الحزن عذوبة وحلاوة، ولكنني خائف عليها!

وعرفت سلمى أنها الآن، تأخذ مكانها على خارطة أخرى غير الخارطة الشخصية؛ التي نشرها عاصم بين يديها.. خارطة تمتدّ خطوطها وانحناءاتها.. وتمتد.. لكي تحتضن العالم كله، والعقيدة والإنسان.. وأنها الآن، أقرب إلى الله من أي وقت مضى..

وأخرجها من أفكارها صوت أبيها، وهو يقول:

ـ الآن، حان الوقت لكي تذهبي إلى المطبخ، فتعدي لنا طعام الإفطار..

وهي تغادر الصالة، التفت إلى عاصم وهو يمسك ذراعه..

ـ ستأكل معنا هذا المساء، وستذوق من طيبات سلمى، ألواناً أخرى..

ـ ولكن...

وقبل أن يتم كلامه، طرق سمعهما ـ عبر النوافذ والأبواب ـ نداء من مكبرة صوت، يبدو أنها قد ربطت إلى سيارة جيب عسكرية، كانت تسير متأنية، وهي تردد ندائها بمنع التجوال منذ الساعة السابعة من مساء هذا اليوم.

نظر عاصم إلى ساعته، فوجد عقربها يشير إلى الرابعة إلا عشرين دقيقة، فنهض قائماً وهو يقول:

ـ أجدني مضطراً للعودة إلى البيت قبل أن يبدأ المنع، فمن يدري كم سيطول؟

قال عبد الرحمن وهو ينهض كذلك:

ـ ولكن، ألا يمكنك أن تبقى معنا؟

أجاب عاصم وهو يمم صوب باب الصالة:

ـ ليس هذا وقتاً مناسباً للبقاء، سأزوركم في فرصة أخرى.

وبعد أقل من دقيقة، كانت سيارته تئز وهي تنساب عبر شارع الغزلاني باتجاه باب الجديد!

❁ ❁ ❁

١٤

كان حنا جرجس يتناول غداءه ـ متأخراً عن موعده ـ عندما طرق الباب.. تساءل عمن يكون وقد مضى أكثر من نصف ساعة على إعلان منع التجول، وصاح وهو يزدرد بصعوبة لقمة من (عِرْق) كان قد أخرج من التنور لتوه:

ـ من؟

أجاب صوت من الخارج:

ـ أنا!

من يكون؟ تساءل مرة أخرى، وقال لابنه البكر سليم:

ـ افتح.

لكنه ما لبث أن نهض قائماً وهو يقول:

ـ لا، سأفتح أنا..

فوجئ بضابط شاب برتبة ملازم، يقف عند الباب، يحيط به جندي وعريف، وهما يحملان غدارتيهما..

في لحظة كالحلم ـ حيث تتميع الصور، وتفقد الأشياء صلابتها ـ نسي حنا التسلسل الزمني للأحداث.. الأفعال وردود الأفعال.. ما يمكن وما لا يمكن.. بل إنه نسي ـ حتى ـ لماذا يطرق عليه ثلاثة من العسكريين الباب، وقال بامتعاض:

ـ ليس هذا الوقت مناسباً، كنت أتناول غدائي..

أجاب الضابط الشاب وهو يبتسم:

ـ سندعك تكمل غداءك، فلا بأس. .

تساءل حنا بالامتعاض نفسه:

ـ يعني؟

قال الضابط:

ـ يعني أن هناك أمراً بإلقاء القبض عليك!

أحس حنا بارتخاء في مفاصله، بأن قلبه يدق حتى لتكاد تسمع دقاته. . إنه لم يعتد موقفاً كهذا طيلة حياته، بل إنه غير مستعد للتعامل معه ابتداءً، وتساءل بصوت مكتوم:

ـ لماذا؟

أجاب الضابط:

ـ ليس هذا من مهمتنا. .

ـ ولكنني أحب أن أعرف.

ـ ستعرف فيما بعد. . هيا. .

واستمد من ضعفه قوة مفاجئة، وقال رافعاً صوته بعض الشيء:

ـ لن أتحرك خطوة واحدة، إن لم أعرف السبب!

أجاب الضابط وهو لا يزال يحافظ على هدوئه بصعوبة:

ـ ثمة أمتار قليلة تفصلك عن الجواب. .

كان دار حنا جرجس يقوم في زقاق جانبي قريب من برج الساعة التابع لكنيسة اللاتين، والذي يتوسط البلد. . وهو يفضي بعد مسافة قريبة من موقع الدار إلى شارع نينوى الرئيسي.

وحاول حنا أن يتجاهل ما قاله الضابط، وتساءل في محاولة منه لكسب الوقت:

ـ كيف؟

قال الضابط:

ـ إن عدداً من رفاقك ينتظرونك قرب الشارع، فلا تضيع الوقت هكذا..

صرخ حنا وهو يندفع دون إرادة إلى خلفية الحلم؛ الذي تتميع فيه الصور، وتفقد الأشياء صلابتها:

ـ رفاقي؟!

وبصعوبة بالغة، استل نفسه من هناك، وكافح؛ لكي يرجع ثانية إلى لحظة الوعي الصافي، حيث يعرف الإنسان أين هو من الزمن والمكان.. وتساءل مرة أخرى، ولكن بصوت أكثر هدوءاً:

ـ أي رفاق؟

أجاب الضابط:

ـ هذه أيضاً ستعرفها بعد لحظات.

كان حنا يعرف ـ ربما أكثر من غيره ـ أن ثمة أشياء كثيرة تجري في المدينة، بعضها مكشوف وأكثرها غامض مُتخفٍّ.. وأن ما يشبه الصراع على كرة الركبي تجري بين فريقين متكافئين في القوة، وأن أياً منهما لا يستطيع إبقاء الكرة في يده طويلاً.. أتراها استقرت عندهم الآن؟ قال في نفسه.. وحاول أن يسلك الطريق الأقصر؛ للدفاع عن نفسه، فثمة طريق آخر قد يلجأ إليه إذا حزب الأمر..

اقترب أكثر من الضابط، وهمس في أذنه:

ـ ولكنني لست منهم!

أجاب الضابط هامساً هو الآخر:

ـ هذا ما نرجوه، ويمكنك أن توضح ذلك هناك.

واصل حنا تشبثه.

ـ أين؟

لم يجب الضابط:

ـ ولكنني لست منهم بكل تأكيد.. أتريد الحقيقة؟

لم يجب الضابط أيضاً..

ـ لقد أرغمت على حضور مؤتمر أنصار السلام، وكنت مثلكم أداة فتنة، ما كان أحرى تجنيب المدينة ويلاتها..

نظر إليه الضابط شزراً، ولم يجب..

ـ أما مؤتمر ماركوركيس، فلم يكن سوى..

صرخ الضابط مقاطعاً:

ـ إنهم ينتظرون عند الشارع، فلا تضيع الوقت، إن أمامي مهام أخرى، وها هو النهار يدلف ـ كما ترى ـ صوب نهايته..

وفجأة، تذكر هاشم عبد السلام، وقال في نفسه: لعله يشفع لي عندهم، فإن بيننا زمالة عمرها سنوات طوال.. لكن موجة من الاكتئاب، ما لبثت أن صفعته وهو يتذكر لقاءهما الأخير، لقد قطع بنفسه الخيط، وكان أحرى به ألا يفعل..

وهو يهم بالتقدم صوب الباب، تذكر الطريق الآخر لحماية نفسه من الأذى، وإن كان يبدو أنه ـ في هذه اللحظات بالذات ـ أصبح غير ذي شأن! وقال بنبرة ذات مغزى:

ـ وهل يتم هذا بعلم الزعيم؟

صرخ الضابط:

ـ ماذا؟

وتحفز العريف والجندي، كمن يتحصن ضد هجوم مباغت..

أجاب حنا متشبثاً بالخيط الأخير:

ـ السيد رئيس الوزراء.. أترى هذه المسائل تجري بعلمه؟

نفد صبر الملازم، وأشار إلى مرافقيه بعصبية..

فبأعقاب رشاشتيهما دفعا حنا دفعاً صوب الباب.. ونادى هذا أهله:

ـ لا تقلقوا علي، فسأعود قريباً..

وهرع الملازم صوب الزقاق يجتازه بصعوبة، ومن ورائه حنا، يحيط به المسلحان، حتى إذا أفضى بهم إلى الشارع، وجدوا هناك سيارة (لوري) كبيرة مسيجة بمشبك من الحديد المتقاطع، ومصبوغة باللون الأخضر الداكن..

إنها سيارة خاصة بنقل السجناء.. قال حنا في نفسه: أتراني أكون منهم؟

ـ اصعد.

قال له العريف، بينما قفز الملازم إلى جوار السائق وسمعه يقول له:

ـ شارع موسكو!

أزّت السيارة وهي تنعطف عند دورة الساعة القريبة؛ لكي تبتعد في شارع الفاروق الجديد باتجاه الشمال، والتفت وراءه صدفة، فلمح

مقهى محترقاً عند رأس الفاروق القديم. . لقد أحرقوه إذاً! قال في نفسه. . وتذكر جلساته الطويلة مع أصدقائه في الأماسي هناك، وحوارهم اليومي حول الجمهورية، والديمقراطية، والرجعية، والزعيم، وحماية مكاسب الثورة، لكنه ما لبث أن خرج عن أفكاره وهو يكتشف قبالته أحد المعتقلين، ودونما إرادة منه، صرخ:

ـ أنت أيضاً؟!

ربت العريف على كتفه، وهو يبتسم، فأدرك حنا مغزى حركته، فسكت. . ونظر مرة أخرى عبر المشبك الحديدي، فرأى الشوارع خالية إلا من مسلحين منتشرين هنا وهناك، عند المفارق والأركان. . بعضهم كان عسكرياً، وبعضهم مدنياً، وراح يقارن بين هذه الشوارع المهجورة، وبينها قبل ساعات، فحسب عندما انطلقت التظاهرات الحاشدة، حيث لم يتبق موطئ قدم، وحيث كان هو يحس بأمانٍ لذيذ وهو ينحسر وسط مئات من رفاقه، ينادون معاً بحماية الجمهورية وسحق أعدائها. . أما الآن، فماذا تبقى؟! ووجد نفسه يعود مرغماً إلى التيار؛ الذي يتدفق في أعماق قلبه، إلى لحظة حلم أخرى تتميع فيها الصور، وتفقد الأشياء صلابتها، ويضيع الإنسان، فلا يعرف أين هو في الزمان والمكان، ولكن حنا، يتشبث ويكافح من أجل أن يعود إلى لحظة الوعي الأنقى رؤية، والأشد إدراكاً وقدرة على الإمساك بالأشياء.

ولَجَتِ السيارة في شارع فرعي إلى اليمين. . عريض نسبياً، هنا حيث يحلو للشيوعيين أن يطلقوا عليه «شارع موسكو»، كان يقطن عدد من أنصار الجمهورية وأبناء الزعيم كما كانوا يسمون أنفسهم. . وهنا أيضاً، تمكن التنظيم من إحكام قبضته، وسعى جاهداً؛ لجعل الشارع

بأزقته الملتوية كالأفاعي، ودوره الصغيرة المتراصة، ككتل حجرية لا تعرف النظام، مقفلاً للشيوعيين وحدهم، وكانوا يستمدون القدرة على مواصلة سعيهم ذاك من وجود زعيمهم عبد الله الجزار، قريباً منهم.

وخلال لحظات، بدا لحنا أنه يمسك بأطراف الصورة، وأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من إدراك مايجري على حقيقته ومداه..

وبين وقت وآخر، كانت السيارة تقف، حيث يقفز الملازم ومرافقاه تاركين السائق وثلاثة من المسلحين بينهم نائب ضابط، لحراسة السيارة، وما يلبث الملازم ومرافقاه أن يختفيا في الدروب الملتوية، لكي يظهروا ثانية بعد دقائق، وبصحبتهم واحد من المقبوض عليهم.

كان يعرفهم جيداً، واحداً.. واحداً، هذا كان يقف إلى جواره في الشرفة المطلة على ساحة الملعب البلدي، وهو يلقي كلمته في أنصار السلام، وهذا بذل جهداً فائقاً في دير ماركوركيس؛ لصياغة القرارات؛ التي تدعم الجمهورية، وتندد بالمتآمرين، وهذا كتب برقية تلتهب حماساً.، طيرت قبل يوم واحد إلى الزعيم، مباركة خطوته المحبة للسلم العالمي، داعية إياه أن يفتح عينيه جيداً على ما يراد به وبثورته..

وعند مدخل أحد الأزقة المفضية إلى الشارع، أطل يونس سعيد عتالة، بوجه يقطر صفرة، وأطراف سائبة لا تكاد تستقر على حال.. وحنا يعرفه جيداً.. التقى معه أكثر من مرة في مقهى المكاوي عند ناصية شارع موسكو، وشهده اليوم يطلق حنجرته وسط مئات من المتظاهرين..

حاول أن يصعد متشبثاً بحافة السيارة الخلفية، فلم تسعفه قدماه، ورآه العريف، فأعانه على الصعود..

لبث لحظات واقفاً وسط السيارة، ثم ما لبث أن انعطف يميناً، وجلس إلى جوار حنا.

ـ أهلاً..

قال له هذا بصوت خفيض..

حدق فيه يونس بعينين مفرغتين، ولم يجبه..

واصل حنا وهو يستمد من هلع زميله رد فعل منحه قدراً من الشجاعة:

ـ يونس؟

خرج أخيراً عن صمته؛ لكي يتوسل إليه:

ـ اصمت، فإنهم يسمعون كل ما نقوله، وقد يحسبونه علينا..

لم يكترث حنا، رغم نبرة التوسل الواضحة في كلمات يونس، وتساءل بصوت لا يكاد يسمع:

ـ ترى، ما الذي سيفعلونه بنا؟

ازدرد يونس ريقه بصعوبة، ولم يجب.

وإذ أدرك حنا ألا جدوى من المحاولة، اعتصم بالصمت هو الآخر.

وعندما استدارت السيارة عائدة بهم عبر الشارع نفسه، منعطفة بعدئذ يساراً صوب شارع الفاروق، كان الغسق يخيم على الأماكن والأشياء، وكان حنا يحس أكثر فأكثر أنه يختنق كآبة وبؤساً.. وإذ مَرَّت السيارة قريباً من برج الساعة في طريقها إلى باب الجديد، تذكر بيته؛

الذي يقبع في زقاق قريب، وقال في نفسه: من يدري؟ واعتراه إحساس بالشجن.. بالإشفاق على النفس، بالحزن الذاتي؛ الذي يخيل للإنسان ـ أحياناً ـ أنه قد مات فعلاً، أو أنه في طريقه إلى الموت، فينشطر على نفسه، ويشارك أهله البكاء بمرارة على الشطر الذي مات!

وعلى الجانب الأيمن ـ حيث ينفتح شارع نينوى، للحظات على الأفق الغربي للمدينة ـ كانت السماء تقطر دماً، وأراد حنا أن يخرج قليلاً من البئر؛ التي يغوص فيها، فهمس في أذن يونس:

ـ تحدث، قل أي شيء.. أرجوك.. فإنني أكاد أختنق..

نظر إليه يونس بامتعاض، وقال بشيء من العصبية:

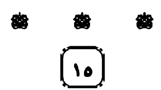
ـ لن يخرجنا الحديث من الكارثة؛ التي نساق إليها.. انظر إليهم.. أترى أحداً منهم يتحدث إلى الآخر، ثم إن كلامنا سيحسب علينا، ألم أقل لك ذلك قبل قليل؟

كانت السيارة قد اكتظت بالمقبوض عليهم.. رفاقاً شيوعيين كباراً وأنصاراً للسلام، وعشاقاً لزعيم العراق المتفرد بالسلطان..

واختلجت عينا يونس أكثر من مرة وهو يديرهما ذات اليمين وذات الشمال، متفرساً في وجوه رفاقه، لكي يتأكد منهم، كان يعرف بعضهم جيداً، وكان يجهل البعض الآخر. وقال في ذات نفسه كمن يؤنب تلميذاً عاقاً: أكان يجب أن أشترك في تظاهرة اليوم؟ وتذكر صديقه عاصم الدباغ، وكيف حاول جاهداً أن يبعده عن الانزلاق إلى حافة المخاطر، ولكنه لم يستجب إليه.. إنه الآن يجلس في قصره الفاره مطمئناً، وغداً، قد يتزوج سلمى.. وبعد غد، سيغدو المعمل معملين، وتخرج النقود من فمه وأذنيه..

وأحس بسيل من الغضب الممتزج بالحقد يجتاحه، وتمنى لو أتيح له أن يثأر.. أن ينتقم.. أن يضرب بلا رحمة.. ولكنه، ما لبث أن آب إلى نفسه وقال: ما ذنبه؟ إنه ذنب هؤلاء الذين يتوجهون بي ـ الآن ـ إلى مصير قد يكون مفجعاً..

ودمعت عيناه وهو يرى السيارة تتثاقل عند إحدى ثكنات معسكر الغزلاني؛ لكي ما تلبث أن تقف هناك.



لم يستطع هاشم عبد السلام أن ينام.. تقلب طويلاً على الفراش، فلم يستطع أن ينام.. كان يتمنى أن ينتزع نصف ساعة فقط من النوم؛ كي يقدر غداً على مواصلة الطريق المترع بالجهد، والعناء، ومجابهة المجهول..

ـ غداً؟

إن شاء الله، رددها أكثر من مرة، وتذكر كيف كانت الساعات الأخيرة من مساء اليوم، بمثابة وضع اللمسات النهائية على مشروع ثورة، قد أعد لها منذ أسابيع.. ثورة، تطمح إلى تحقيق شيء كبير حقاً.. تغيير شامل، يعيد العراق كله إلى جادة الصواب، بعد أن تأرجح به طغيان الزعيم، وأهواء الشيوعيين أشهراً طوالاً، فأخرجوه عن الطريق، أتراهم سيقدرون على تحقيق الحلم؛ الذي تتطلع إليه الجماهير؟

وسرعان ما سيطر عليه، وتمكن منه لدقائق، إحساس قاس مبهظ، بأنَّ الحركة قد تكون غير مغطاة بما فيه الكفاية، وأن انكشاف جوانب منها، قد جعل حكومة بغداد تسعى إلى إثارة سلسلة من الضغوط

والتحديات؛ لدفعها إلى الانفجار والتكشف الكامل قبل موعدها المحدد، ولكي يسوقها رد الفعل والتوتر وفقدان المبادرة إلى تضييع الهدف التاريخي؛ الذي تتحفّز لتنفيذه.

استعاذ بالله من الشيطان أكثر من مرة، وهو يبذل جهداً مضاعفاً؛ لطرد هذا الهاجس، ومن أجل أن ينتقل إلى الجانب الآخر، فيمنح نفسه الثقة بالأمل، ويحظى بفرح الترقب المتمني؛ الذي لا تهب عليه دفقات الدخان اللعين، راح يستعرض في ذهنه النشاط المتزايد؛ الذي شهدته المدينة في الساعات الأخيرة، ساعات منع التجوال بالذات، حيث انطلق الضباط الشباب وضباط الصف والجنود، بحركة محمومة؛ لتوزيع الأسلحة على العناصر المدنية؛ التي كانت تتحرق شوقاً ليوم كهذا، ولترتيب الاستحكامات، ورسم الخطط المناسبة؛ لجعل المدينة أقدر على المقاومة إذا ما حدث، وإن تعرضت لغزو ما قد تشنه بغداد، أو قد يتدفق على الموصل من هنا أو هناك.

مئات من الضباط وضباط الصف والجنود، يؤازرهم، ويشد عزمهم، ويحمي ظهورهم ألوف من المواطنين، اختيرت نخبة منهم لتأدية مهماتها المرسومة ساعة الحسم التي غدت قاب قوسين أو أدنى..

غداً؟!

وراح قلبه يدق بعنف كلما تذكر أنه لم يعد يفصله ـ يفصل الثوار جميعاً.. مدنيين وعسكريين ـ سوى ثلاث ساعات فحسب، حيث تقرر أن تعلن الثورة..

إن العراق يقف الآن على بعد خطوات من الخلاص.. وإن مدينته الشمالية التي أحبها أبناؤها دائماً منذ أن تشكلت بداياتها الأولى في

تاريخ لا يعرفه أحد.. لتتحفز اليوم لهذه المهمة، باذلة الغالي والرخيص، مضحّية بأعز ما تملك، من أجل مصير قد يعيد للعراقيين كلهم ما فقدوه.. ترى، هل ستقدر على اجتياز الامتحان العصيب؟

فمن فرح مترع بالإشفاق عليها.. على المدينة الحبيبة، دمعت عيناه وهو يكافح؛ لكي يحظى بدقائق من النوم. دمعت عيناه وهو يتخيلها عروسة متزينة تنث شذى وعطراً.. أو فرساً مطهماً لم تعرف النكوص أو التراجع يوماً.. حتى لو تقدم لذبحها ألف من الجزارين.. وحام للحظات بالفرس، وهي تنطلق بخيّالِها الشاب؛ الذي يحمل رشّاشة بيد، وكتاب الله بالأخرى، لكي يدخل بعد ساعة أو ساعتين مدينة بغداد فاتحاً... ويقتحم حصون وزارة الدفاع، ويصفي حسابه مع الزعيم..

لكنه، ما لبث أن رجع إلى صراعه القاسي ضد الأرق، والتقلب، والانتظار.. ونظر إلى ساعته، فوجد أن ثمة أقل من ساعة تفصله عن الإمساك، وكان يعرف جيداً أن ليس بمقدوره تناول لقمة واحدة من الطعام، كما أنه لم يكن بمقدوره، أن يحظى بدقيقة واحدة من النوم.

ونادته زوجته أكثر من مرة قائلة: إن طعام السحور أصبح جاهزاً، وأن بمقدوره أن يتناول ما يمكنه من مجابهة يوم آخر من الصوم، لكنه لم يرد عليها، وكانت دوامات الأفكار تأخذه بعيداً، فتتأرجح به بعنف وقسوة بين الماضي القريب والمستقبل؛ الذي تداخلت خطوطه وألوانه، فلم يعد بمستطاع أحد أن يخمن كيف سيتشكل، وكيف سيصير..

وأحس برأسه يثقل، وبدوار قاس، يكاد يلفه، وبأنه يجد نفسه بين المطرقة والسندان، مطرقة الساعات القريبة الماضية، وسندان الساعات القريبة القادمة..

ونادته زوجته مرة أخرى، فلم يرد عليها، واستيقظ طفله الصغير على صوت أمه، ففرك عينيه، ثم ما لبث أن نهض قائماً، وبحركة غير واعية، قطع بخطواته الضيقة المسافة بين فراشه وفراش أبيه، ثم ما لبث أن ارتمى ثانية؛ ليغفو في حضن أبيه..

طوقه هذا بذراعه، ودفعه أكثر إلى صدره، وكأنه كان يحاول أن يحميه من خطر ما.. أن يمنحه حناناً قد لا تُمكّنه الأيام القادمة من منحه إياه..

وإذ أدرك أنه ليس ثمة أية فرصة للنوم، ترك فراشه، بعد أن تأكد تماماً من دثار طفله، وغادر الغرفة إلى الحوش، حيث كان يسمع أذان الفجر بوضوح من منارة الجامع الكبير..

وجد حشداً من الشباب هناك، مبعثرين في الفناء، والرواق، والمصلى، بعضهم كان يحمل بندقية أو رشاشاً، وبعضهم الآخر اكتفى بوضع مسدس في جيب بنطاله الخلفي، حيث تبدو المأسورات الصغيرة من وراء الأردية السميكة.

كانوا يعرفونه جيداً.. فما إن وضع خطواته الأولى في الباب الرئيسي للجامع، واجتاز الممر العريض المفضي إلى الفناء، حتى أقبلوا عليه يشدون على يديه، ويعانقونه..

سأل هاشم أحدهم..

ـ هل وجدتم مصاعب في الوصول إلى هنا؟

أجاب الشاب وهو يمسح وجهه بمنديله من آثار الوضوء، ويمد يده ليتناول رشاشاً صغيراً كان قد وضعه في زاوية قريبة:

ـ إن لدينا أوامر بعدم التعرض، وسوف نتوجه بعد الصلاة؛ لأداء مهام الحراسة؛ التي أوكِلَتْ إلينا وعدد من المقاتلين في دورتي الساعة وباب الجديد. .

وخفق قلب هاشم وهو يتذكر كيف أنه مكلف هو الآخر بأداء المهمة؛ التي عهدت إليه، يتجه مع دقائق الصباح الأولى إلى دورة الساعة، ومن هناك، تقله سيارة جيب إلى معسكر الغزلاني، لكي يكون واحداً ممن سيعملون في جهاز البث؛ الذي سيغدو بعد ساعة فحسب، إذاعة للثورة، وصوتاً ينقل للناس في كل مكان ما الذي تريد أن تقوله بمواجهة السلطة. .

وقال شاب آخر:

ـ أعتقد أن الأمور تجري على ما يرام، وبعد ساعة أو ساعتين، سيعرف الطاغية وحراسه من الشيوعيين أن هناك من يقف لهم بالمرصاد. .

ربت هاشم على كتفه وهو يبتسم:

ـ إن شاء الله. . إن شاء الله. .

وتمنى لو تطول وقفته أكثر معهم، مع هؤلاء الشبان؛ الذين لم تتجاوز أعمارهم التاسعة عشرة والعشرين، ومع ذلك، فإن الحياة لم تقدر على أن تأسرهم. . إنهم استطاعوا ـ بقوة الإيمان، وبالقدرة في الرد على التحدي ـ أن يتجاوزوا إغراءها، وهم الآن، ربما يقفون على حافة الموت، ولكنهم لا يفكرون إلا بشيء واحد: الوقوف بوجه الإلحاد والطغيان. .

تمنى لو يقف معهم أكثر، من أجل أن يتعلم. . ولكن، ها هو ذا نداء الدعوة لإقامة الصلاة يجيء من داخل المسجد، مرتطماً بخطوط الأعمدة المرمرية الممتدة هناك بتناسق بديع، منبعثاً بنغماته الندية من مكان ما قريب من المحراب.

وعندما غادر بوابة الجامع الكبير عائداً إلى بيته؛ لكي يقضي المدى الزمني؛ الذي يفصله عن الموعد، كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تصعد في السماء الشرقية، ولحظة إثر لحظة، كان الأفق يزداد انكشافاً، والعتمة تنسحب تاركة بعض ذيولها القاتمة تلف الأماكن والأشياء.. وثمة قطع متفرقة من السحاب، تبحر بأشرعتها الناصعة البيضاء في بحر السماء الأزرق العميق، ثم ما تلبث أن تتفتت وتتناثر كالقطن المندوف.. وكانت ـ وهي تعود لتتجمع ثانية ـ تتلقى عند حافاتها دفقات من أشعة الشمس الوانية، فتمتصها بشغف، وتعرف كيف تذيبها حباً وشوقاً؛ لكي ما تلبث أن تطرزها بلون كالبرتقال، يغمق ويغمق، حتى يثير حزنها وشجنها، فتقطر دماً!

ـ سبحان الله..

والبهجة. وهو يعاين هذا المهرجان المؤثر الجميل، ويسعى إلى الاندماج فيه أو مشاركته ـ على الأقل ـ في الحركة.. والبهجة. والتناغم... والحزن. والحزن. والتلاشي... وأردف: المعقول أن يظل الإنسان بعيداً عما يجري في الكون، قال في ذات نفسه.. وأردف: إن الله جل وعلا، ينادينا صباح مساء أن نأخذ دورنا.. أن نشارك.. أن نرسم الخطوط، ونفرش الكتل والمساحات، وأن نحكي للنجوم، والسحب، والشمس، والقمر، ما يعتمل في نفوسنا؛ لكي نتلقى منها دفقات السلوى والعزاء، ونفهم لغتها، فنزداد قدرة على مواصلة طريقنا صوب المصير المتفرد البعيد..

وقال كذلك وهو يحس بدفقة من الأمل ما أحس عشر معشارها الليل كله: هنا، في الساحة السماوية. في قلب الحوار بين الإنسان

والأعالي، يعرف ابن آدم، أنه ليس وحده في الميدان، وأن مهمّتهُ ليست محصورة بتحرير هذه المدينة أو البلد أو ذاك.. ولكن، في تحرير العالم كله.. الأرض على امتدادها، من العزلة والقطيعة والخصام مع السموات القريبة والبعيدة، جعلها قديرة، بتحررها ذاك، أن تضحك للسماء، وأن تبكي معها.. أن ترجع ثانية إلى مكانها في ذلك المهرجان اللانهائي؛ الذي يلف الحياة والخلائق والأشياء.

ولم يشأ أن يرجع إلى البيت، وقال: إنه في هذه اللحظات؛ التي تبدأ فيها دراما الصراع بين النور والعتمة، يستطيع الإنسان المؤمن أن يتعلم، وإن ثورتنا القادمة بعد ساعات، ما هي إلا دفقة نور تسعى لمطاردة الظلام وتطويقه، ولن يعني انتصارنا توقف الصراع، كما لن يعني انكسارها وتلاشيها نهاية للملاحقة الأبدية بين الشعاع والدخان..

وحدق في الأفق الشرقي بنشوة عارمة، وهو يقول في نفسه ها هي ذي دورة جديدة من التقابل الأبدي، كما كانت بالأمس، وكما ستكون غداً!

وقال: إن الله جل وعلا يعلمنا، وقليلاً ما نتعلم.. ولكن، ومهما يكن من أمر، فإننا سنضع اليوم ما نملك، وما نقدر عليه في مواجهة القوى؛ التي تسعى إلى حصار الإنسان، واختناق العالم، ووقف حركة الأرض الأبدية، وتناغمها مع الكون.. وفي هذا وحده العزاء..

ونظر إلى ساعته، فوجد الوقت قد حان، لكنه لم يشأ أن ينطلق إلى المكان؛ الذي تنتظره فيه سيارة الجيب، عند برج الساعة، قبل أن يحث خطاه مسرعاً إلى البيت، لكي يطبع قبلة على خد علي الصغير، الغائص في نومه وأحلامه..

❁ ❁ ❁

١٦

استيقظ حنا جرجس مع خيوط الفجر الأولى..

استيقظ؟ أبداً.. فإنه ما قدر على أن يغفو لحظة واحدة.. سيطر على فكره وأعصابه شبح خوف رهيب. كان يمسك بمطرقة من حديد صلب، يضرب بها رأسه دقيقة بعد دقيقة، ويقول له: ستُقتل.. ستُقتل..

وسرعان ما استحال الكابوس حمى قاسية، جعلت رأسَهُ ينتفخ، وقدراته الذهنية تضعف وتضعف، حتى تكاد تتلاشى، فيفقد إحساسه تماماً بما يحيط به، وتغيب المرئيات عن عينيه، ولا يتبقى ثمة سوى شيء واحد: المطرقة؛ التي تنزل كنقوط الماء على رأسه، فتسمعه ذلك الصوت اللعين: سوف تقتل.. سوف تقتل..

وما إن أخذت دفقات الشعاع الأولى تتسرب عبر النافذة الحديدية القريبة من سقف الصالة الحجرية المستطيلة؛ التي احتجز حنا فيها وعدد من رفاقه، حتى أحس بشيء من الاطمئنان، واستعاد بعض وعيه وقدراته على التركيز، فكان أول ما فعله أن اعتدل قليلاً؛ لكي يتكئ على الجدار، وأجال عينيه في أطراف القاعة الكبيرة.

كانت السيارات اللوري قد اجتازت المعسكر مساء أمس بعد أن أذنت الشمس بالأفول، وأخذ الظلام يتسرب بين ممرات المعسكر، وغرفه، وقاعاته، ولم يستطع حنا ولا أي من زملائه، أن يدققوا فيما حولهم، فقد طلب إليهم أن يحثوا خطاهم عبر شبكة من الممرات، بعضها طيني لزج، وبعضها مرصوف، لكي ما يلبث الحراس أن

يفرقوهم إلى ثلاث مجموعات، ضمت كل منها عشرات المعتقلين، وزعوا على ثلاث من القاعات الكبيرة المبنية بالحجر والإسمنت، والمغطاة بالصفيح المتعرج؛ الذي يستند على أعمدة خشبية غليظة، تستقر وهي تتقابل على عمود وسطي أملس، يمتد على طول السقف، ولم يكن ثمة في القاعة سوى عدد من النوافذ الصغيرة المشبكة بالحديد، والتي تبعد كثيراً عن أسفل الجدار حتى لتكاد تمس السقف، أما الأرضية، فقد غطيت بطبقة من الأسمنت، تتخلله شقوق وثغرات، تنكشف من خلالها الأرض الطينية الحمراء، فتزيد جو القاعة رطوبة، وتجعل بردها لا يطاق. .

وأدار رأسه قليلاً إلى اليسار، فإذا به يجد يونس سعيد عتاله. . أحس بشيء من الارتياح، وقال في نفسه: لقد جاورني في السيارة، وها هو ذا يجاورني في النوم على أرضية القاعة اللعينة. .

فرك يونس عينيه، ثم فتحهما، فإذا بوجه حنا جرجس يطل عليه، أصفر شاحباً، يحاول صاحبه بصعوبة أن يرسم عليه شبح ابتسامة، أو ظلاً من الاطمئنان وهو يقول:

ـ إذاً فأنت هنا إلى جواري؟

لم يجبه، وظل يدعك عينيه. .

واصل حنا، ولكن بصوت أكثر انخفاضاً:

ـ ظننت أنهم سيقتلوننا، توقعت دخولهم علينا بين لحظة وأخرى، فلم أستطع النوم، إن رأسي يكاد ينفجر. .

زحف يونس قليلاً؛ لكي يتكئ على الجدار هو الآخر، وأحس حنا بشيء من الحسد بعد أن تأكد لديه من انتفاخ وجهه، أنه قد نام فعلاً لعدة ساعات.

- إذاً فقد مضى الليل بسلام؟

قالها يونس وهو يدني فمه من أذن زميله، فأحس هذا بشيء من الارتياح، إذ قدر على أن يجعل جاره يتكلم أخيراً . .

- إذا أردت الحق، فإننا نعيش - الآن - حالة يستوي فيها الليل والنهار!

تساءل يونس وهو يرسم على وجهه تعبيراً أقرب ما يكون إلى السذاجة:

- كيف؟

- لأننا بانتظار الذبح في أية لحظة . .

قال يونس بالسذاجة نفسها:

- هكذا؟

- طبعاً.

أجاب حنا بشيء من العصبية:

- فماذا تتصورهم فاعلين بعد أن جاؤوا بنا إلى هذا المكان؟ أتعتقد أنها مجرد نزهة، أم . . ؟

قاطعه يونس وهو ينزلق ثانية على فراشه:

- إن الجدار رطب، وأخشى أن يؤذي ظهورنا.

بينما تشبث حنا بمحاولة استدراجه لمزيد من الحديث، علَّه يطرح ما يكسر به الحلقة المفرغة؛ التي أحاطت به صوب احتمالات أخرى غير القتل . .

- كنت أسألك عن الهدف من وضعنا في هذا المكان . .

- تسألني أنا؟

- طبعاً . .

ـ ألا يجوز أن يكتفوا بحجزنا هنا لحين تمرير مؤامرتهم الدنيئة؟

ـ ها؟!

قالها حنا، وقد التمع أمامه ـ على حين غفلة ـ احتمال غاب عن ذهنه تماماً، وها هو يونس؛ الذي لم يتوقع في إجابته خيراً، يطرح بشيء من الذكاء الفطري هذا الاحتمال..

وكالغريق؛ الذي يجد فجأة لوحاً عريضاً من الخشب الطافي، فيسعى للتشبث به، اقترب حنا من زميله ووضع يده على كتفه بمحبة، وقال له:

ـ إذا صدق حدسك يا يونس، فسوف تكتب لنا حياة ثانية!

لم يجبه يونس، بينما واصل حنا باللهفة نفسها:

ـ ترى، هل سنعود إلى أهلنا وأطفالنا؟!

ولم يكترث يونس لتمنيات زميله، لأنه لم تكن له زوجة ولا ولد، تذكر كيف أنه حاول عدة مرات ولم يفلح، وبذلت أمه وأخته جهوداً متواصلة للعثور على ابنة الحلال، فلم تصلا إلى نتيجة، كانت الأمهات يسألن عنه قبل أن يعطين الجواب، فكانت المعلومات تجيئهن مؤكدة ما يقال عنه، فيعتذرن.

كان يونس يعاني من قطعة بيضاء أصابت بالتشويه عينه اليسرى، وكان هذا وحده سبباً؛ لإحباط مساعي أهله الواحدة تلو الأخرى.

ليس هذا فحسب، بل إن حواجز أخرى اعترضت هدفه، فلقد اشتهر في الحي بشيء من التخلف الذهني، كما أن شهية السكر، استعبدته إلى حد الإدمان، رغم أنه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر، وكان يعاني من انكماش في تكوينه الجسدي بسبب من هزاله الشديد، أما

رأسه الصغير المستدير كالكرة، فلم يسعفه أو يغطي عليه قدر كاف من الشعر، يمنحه شيئاً من التوازن والامتلاء. .

وإذ وجد حنا زميله يعود إلى صمته ثانية، آثر السكوت هو الآخر، وراح يجيل عينيه في أرجاء المكان. .

ثمة أكثر من خمسين معتقلاً مبعثرين في أطرافه، بعضهم لا يزال يغط في نومه، وبعضهم الآخر سئم الأرق والمنام، فاعتدل مسلماً ظهره للجدار، وهو يجتر أفكاره وتوقعاته، بينما اندمج الآخرون في حديث هامس، تقطعه بين لحظة وأخرى عبارة: اصمت، فإنهم يسمعوننا. .

ومرقت في ذهنه فكرة ما جعلته يستعيد توازنه أكثر، بينما غطت وجهه ابتسامة يصعب اكتشافها، وقال وهو يمسح نظارته بطرف بيجامته:

ـ أترى، جريمتهم لن تبلغ رائحتها بغداد؟

نظر إليه يونس سعيد دون أن يدرك معنى كلامه، وتساءل:

ـ ماذا؟

واصل حنا:

ـ إذا عرف الزعيم ما الذي يفعلونه بنا، فإنه لن يسكت، وسيعرف كيف يعاقبهم. .

خرج يونس مرة أخرى عن صمته، وأبدى رغبته في الحديث، حيث عرف حنا إلى أي وجهة يسوقه، وقال:

ـ هل تتصور أنه لا يعرف ما يجري؟ إنها مؤامرة كبيرة يا حنا، ومن ورائها دول تسعى للفتك بجمهوريتنا الفتية وزعيمها الأوحد، أتراه لا يعرفها جيداً؟

قال حنا وهو يثبت نظارته أمام أرنبة أنفه المقوس قليلاً، ويعيد خصلة شعره الفاحم إلى مكانها بعيداً عن جبهته الضيقة:

ـ لا أتحدث عن المؤامرة، ولكن، عن خلاصنا.. وربما. أن يقف الزعيم مكتوف اليدين إزاء مئات من خيرة أنصاره ومحبيه يساقون للاعتقال.. وربما.. قاطعه يونس وهو يهرش رأسه:

ـ إذا تحرك لسحق المؤامرة فسوف ينقذنا.. بالتأكيد، سوف يخرجنا من هذه المصيدة؛ التي وضعنا فيها الشواف..

قال حنا وهو يتنهد:

ـ ولكنني أخشى أن تجيء محاولته متأخّرة، بعد أن يكون الأوان قد فات..

تساءل يونس:

ـ كيف؟

لم ينتبه لسؤاله، وواصل:

ـ أو أن تكون محاولته على حسابنا!

تساءل يونس مرة أخرى:

ـ كيف؟

أجاب حنا وهو يجيل بصره بحزن في أطراف القاعة الكبيرة:

ـ لن يسلم المتآمرون بالهزيمة قبل أن ينتقموا.. أقسم لك يا يونس.. إننا بين أيديهم صيد سهل، بمقدورهم ـ إذا خسروا كل شيء ـ أن يُشفوا صدورهم بقتلنا، لسنا عدداً قليلاً، أو أناساً عاديين.

وأحس يونس وهو يستمع العبارة الأخيرة بشيء من الثقة بالنفس، سرعان ما تخطت حدودها المعقولة إلى نوع من الغرور، وتصور نفسه

يقود حشداً من جماهير الناس في تظاهرة كبرى تصرخ في وجه المتآمرين، وتنقض عليهم؛ لكي تمزقهم.. وكان يتخيل نفسه أنه بإشارة واحدة منه، يسوق أعداءه إلى حتوفهم..

كان يونس يعاني من إحساس شديد متسلط بالنقص، فإن حول عينه اليسرى وضآلة جسده، وافتقاره لأيما قدرة ذهنية، ونظرة الأهل والمعارف إليه، تلك النظرة؛ التي انطبعت في ذهنه وهي تحمل مزيداً من الاحتقار والسخرية والإشفاق، هذه ـ جميعاً ـ مكنت ذلك الإحساس المبهظ منه، وهو لم يكن من النوع؛ الذي يستجيب لتحدي النقص، فيسعى للتعويض بهذا الاتجاه أو ذاك، لقد كانت تخونه قدرته الذهنية المحدودة، وعجزه، فيظل دائماً هناك، يتخبط في شباك إحساس مرير.

وتذكر صديقه القديم عاصم الدباغ، وكيف أنه يتمتع ـ الآن ـ بثروة أبيه.. بِمَ كان يتميز عنّي؟ لقد قضينا سوية سني الدراسة الثانوية، وكنا نزحف معاً ببطء، ونُتَّهم معاً بالغباء، فلماذا تقدم وتأخرت؟ وتذكر خطيبته سلمى، وكيف أنه قدر بسهولة أن يخطبها.. ومن يدري؟ فلعله يتزوج عما قريب، ونحن هنا نعني الخوف والمذلة، وتذكر كيف فشلت محاولات أمه وأخته بأن تخطبا له واحدة مهما كانت.. سوف يشبع من كل شيء بثروة سقطت عليه من السماء، وأنا أعاني جوعاً لا يرحم إلى كل شيء.. كنا نزحف معاً أنا وهو ببطء.. فلماذا؟

واعتدل مرة أخرى، وزحف بظهره إلى الجدار؛ لكي يريحه هناك، وسمع حنا جرجس وهو يقول:

ـ إن المسألة ـ في اعتقادي ـ ليس في قدرة الزعيم على التحرك في الوقت المناسب لسحق المؤامرة، ولكنه القرار؛ الذي يدور في رؤوس

المتآمرين. .إذا كانوا قد قرروا قتلنا، فلن تستطيع قوة في الأرض أن تخلصنا. . أما أنصار. .السلام، ـ لا يدري لماذا؟ ـ هاشم عبد السلام، من بين سائر المتآمرين. . وقف أمامه بالجبة والعمامة واللحية القصيرة السوداء والعينين المتقدتين، وراح يقول له بصوت متوعد: إنني أعرفك جيداً يا حنا، مخلوقاً خبيثاً ملتوياً كالأفاعي الملساء. . تعرف كيف تنفذ سمها، ثم تنسحب متسللة لا يدري بها أحد، ولكنك كشفت عن نفسك أخيراً. . وسوف أقول لهم ـ إذا نسوا ـ: إنك ساهمت في مهرجان أنصار السلام حتى بُحَّ صوتك، ثم غادرته إلى دير ماركوركيس؛ لكي تحبك الحبل؛ الذي يلتف على أعناقنا، لكني؛ سأطلب منهم أن يقتلوك قبل أن تنفث سمك مرة أخرى. .

وما لبث أن انتابته رعدة جعلت جسمه يرتجف للحظات، وجبهته تتصبَّب عرقاً. .

وأخرجه يونس عن خواطره المضنية وهو يقول:

ـ إنني أحس بجوع شديد، أتُراهم يرغموننا على الصوم؟

حاول حنا أن ينتزع ابتسامة بصعوبة بالغة:

ـ وأنا، هل يحق لهم أن يرغموني على الصيام؟

أجاب يونس:

ـ كلنا سواء في هذا الأمر. . ولكنني جوعان. .

قال حنا:

ـ ألم أعرض عليك ليلة أمس أن تأكل حصتي؟ إنني في ظروف كهذه، لا أستطيع أن أتناول لقمة واحدة، حتى لو امتد الحال لعدة أيام. .

قال يونس وهو يحاول جاهداً أن يحك نقطة ما بعيدة في ظهره:

ـ ليلة أمس؟ وهل كان بمقدور أحد آنذاك أن يأكل لقمة واحدة؟

أجاب حنا وهو يسمر بصره بإحدى النوافذ الصغيرة القريبة من السقف المعدني، وكأنه يحلم:

ـ إذا أتيح لنا أن نخرج، فسوف أولم لك ولكل الموجودين هنا وليمة يتحدث بها الرائح والغادي..

ووجد يونس نفسه يعود إلى حلمه مرة أخرى، ويتخيل نفسه محمولاً على الأكتاف، وهو يهتف بحياة الجمهورية و الزعيم، ويصب اللعنات على الرجعية والتآمر.. وللحظات رأى نفسه يركض مع حشد من الجماهير إلى دور كل الذين رفضوا تزويج بناتهم لكي يقلبها على من فيها، ثم ما لبث أن تفردت في ذهنه صورة ما، بدأت غامضة، مهوشة، ولكن خطوطها وتفاصيلها أخذت تتبلور و تتماسك بالتدريج حتى غدت في نهاية الأمر واضحة بينة، بل إنها تجاوزت تسطحها ذا الطول والعرض لكي تغدو مجسماً يملك مع الطول والعرض عمقاً يجعله أقرب إلى الحقيقة.. وقال في نفسه: آه.. لو أتيح لنا فقط أن نفلت من الموت!

❁ ❁ ❁



لم تكد أشعة الشمس الأولى تطل بانكساراتها الذهبية عند أطراف السماء الشرقية؛ حتى كان عبد الرحمن الشيخ داود يجلس في الشرفة المطلة على الشارع العام، لا يكاد السياج الخارجي الواطئ يفصله عن

اللوحة؛ التي تمتد أمامه، وتنتشر في المدى، يشارك في تشكيلها وتلوينها الفجر والربيع وندى الصباح؛ الذي يتلامع على رؤوس الحشائش الخضر كالدر واللؤلؤ، ويمنحها الروح والحياة.. روح قادم من مكان ما.. مكان لا يستطيع عبد الرحمن ـ ولا أي واحد من عشاق الجمال ـ أن يحددوا مصدره الآتي منه، لكنه متحقق هنا على الأرض بمواجهة الحواس.. متعشق ـ يقيناً ـ مع الخضرة والندى والشعاع..

وعبد الرحمن، اختار هذا الموقع المكشوف؛ لبناء داره منذ أكثر من عشر سنوات؛ لأنه يعشق الأرض، يحبها حتى آخر خلية في دمه، وهو يراها بملء عينيه ووجدانه، ترتدي في أخريات الشتاء، رداء رقيقاً من العشب الخفيف، كالزغب؛ الذي يكسو الفراخ ساعة تلدها أمهاتها..

بعدها، يبدأ مسلسل التخلق الجميل؛ الذي لا يمكن لإنسان أن يعرف خطواته جيداً، ويشبع منها جيداً، كما يمكن لأولئك الذي يعيشون في الموصل، ويتقلبون في ربيعها ذي القصائد، والنزوات، والألحان..

وعبد الرحمن، يتابع هذا المسلسل، ساعة بساعة، ويوماً بيوم، إنه يجلس هنا الساعات الطوال، لا يكل ولا يمل، وطالما قال لأصدقائه: إنه ـ في هذا المكان ـ يقرأ في كتاب ليس كالكتب، ويتعلم ما لم يتعلمه عبر سني الدراسة كلها!

ويوماً بعد يوم ـ ومن خلال تغير لوني هادئ ولكنه منظور ـ يتابع المهرجان عروضه المؤثرة، مصعداً بها نحو نهايات آذار، حتى يبلغ الجمال أوجه، وحيث تتفجر دفعة واحدة، وتتعاشق بعنف الألوان الحارة، والروائح الشذية، وتهب على البراري والحقول، ريح مغسولة تقل سحباً كالثلج، لكنها مترعة ماءً.. إذ ما يلبث الأبيض أن يتحول إلى

الأزرق، فالرمادي، ويعمق هذا كله لكي ما يلبث أن يسود ويسود حتى كأن ليلاً غريباً قد أطبق فجأة على السموات القريبة.. وما هي إلا لحظات، حتى تتمخض السحب الثقال عن مطر غزير كأفواه القرب، يغسل الحقول، يسقيها، يزيدها ألقاً ونضارة وبهاء.. وما هي إلا دقائق، حتى يكف الغطاء، وتمارس الريح تمزيقها للسحاب المطبق، بعد أن عملت قبل قليل، على التحامه وتوحده.. ويتراجع العنف اللوني من الأسود الغامق إلى الرمادي، فالأزرق، فالأبيض المتلامع، ككتل الثلج الرطبة، وعندما تعود الشمس؛ لكي تسكب أشعتها من جديد على الأرضية المفعمة الخضراء؛ التي تتوق للشعاع، فإن المرء يستطيع أن يتصور تماماً، بل أن يلمس، هذه الأشعة، ويرى كم هي مغسولة، وكم هي لامعة، وكيف سيكون العناق مؤثراً بين الدفء المتوهج القادم من السماء، وبين الأرض الخضراء؛ التي ترتجف من البرد والوحشة!

لقد كان عبد الرحمن، يعيش هذه الملحمة الربيعية بجوارحه وأعصابه، يندمج فيها، ويذوب في منحنياتها المتدثرة بالعشب والصفّير والنفل وشقائق النعمان.. يحس بالبرد حين يرتجف العشب عند هبات الرياح، وبالرطوبة والبلل حين تتساقط الأمطار.. وبالوحشة والفزع، حين تسود الظلمة، ويهرب الناس تاركين الأرض لوحدها، ثم هو يحسّ بدفء شديد ممتلئ، حين تعود أشعة الشمس؛ لكي تلاحق الرطوبة والبرد والوحشة والظلام، فتعيد لمعادلة الربيع توازنها المفقود!!

ها هو ـ الآن ـ يجلس وحيداً كعادته، صبيحة الأحد الثامن من آذار.. المحطة الأولى لقطار الربيع الذاهب إلى النهايات القصية؛ لكي ينث الشذا والعبق، ويوزع على أطراف المدينة الحلوة ـ مجاناً ـ باقات الورد، والرياحين..

طيلة ساعات الليل، وهو يحتضن المذياع، ويحرك عقربه، ذات اليمين وذات الشمال، في محاولة منه لالتقاط إشارة ما، نبأ مهم يمنحه الجواب؛ الذي تاق إليه.. لكنه، لم يعثر على أي شيء.. وأخيراً قدر على أن يرتاح قليلاً في أحضان النوم اللذيذ، لكنه، ما لبث ـ بعد نصف ساعة ـ أن فتح عينيه على بدايات الفجر الأولى، وهي تتسلل بهدوء وخفاء، لكي تغطي بلغتها الخاصة، صفحة المدينة من أقصاها إلى أقصاها.. وبحركة غير إرادية، مد يده إلى زر المذياع؛ لكي يبدأ محاولته من جديد، وإذ لم يحظ بشيء، غادر فراشه لكي يصلي الفجر قبل فوات موعده، ويذهب بعدها إلى مكانه في الشرفة، حيث اعتاد أن يجلس هناك.

وتذكر صهره عاصم، عندما التحمت جوارحه وعيناه بالأرض الخضراء الرطبة المنفتحة، حتى حوافي نهر دجلة؛ الذي يلتمع ـ أحياناً ـ فتستطع العين الشاعرة ـ أحياناً ـ أن تراه وتسمعه وهو يتدفق، رغم أنه بعيد لا يكاد يرى.. وقال في نفسه: إنه يريدنا أن نرحل إلى بغداد.. نعم.. ولكن من يضمن الرجوع؟

وتخيل كما لو أن الأمور ازدادت تعقيداً، والآفاق المحيطة بالموصل ازدادت ظلمة واكفهراراً، ومضى مع تصوره؛ لكي يتصور أنه استجاب لنداء صهره، ورحلوا جميعاً إلى بغداد، ثم حدث شيء ما، حدث قد يحدسه الإنسان، لكنه غير قادر البتة على تفحصه ومعرفة أبعاده الحقيقية، فاضطروا للبقاء هناك، ولم يعد بمقدورهم أن يرجعوا إلى الموصل، وأحس كما لو أنه يختنق، فطوح بيديه ساعياً؛ لإبعاد تصور قاس أشبه بالكابوس، إذاً فهو يريدنا أن نرحل إلى بغداد؟ وارتسمت على وجهه ملامح امتزجت فيها خطوط الحزن، والسخرية والتوجس، والقلق والإشفاق..

وكمن يتحفز؛ لكي يمنح وعده الأبدي للمحبوب، زم شفتيه وقال في ذات نفسه، وهو يمد بصره صوب الحافات البعيدة للحقول، حيث تنتصب أشجار الحور، والصنوبر والسرو، والسنديان: لن أغادر الموصل أبداً . . وتذكر ما قاله يوم أمس لصهره، فأحس بارتياح عميق، وبتوحد الذين يفون بوعود سبق وأن قطعوها، وها هو ذا، يبر به لحظة الحسم الصعبة . .

وأدرك أنه غير مستعد ـ البتة ـ أن يودع ـ ولو لفترة قصيرة ـ هذه الخضرة الواعدة؛ التي يتابع رحلتها يوماً بيوم، ترى، أبمقدور البجع أن يغادر البحيرات الزرق، وهو لا يعرف متى سيعود؟!

كانت الشمس قد ارتفعت قامة السماء، عندما لمح عبد الرحمن سيارة جيب تنحدر بسرعة صوب المعسكر وهي تقل رجلاً معمماً، ورغم أن المشهد كان مفاجئاً وسريعاً فإن عبد الرحمن استطاع أن يلتقط ملامح الرجل، وخمن أنه هاشم عبد السلام، وبعد محاولة منه لتعميق خطوط الصورة في ذهنه، قال في نفسه: بالتأكيد، إنه هو!

وما لبث أن انفجر قلقه؛ الذي مارس تعذيبه ساعات الليل الطويلة، وها هو الآن، يعود إلى حالة الانتظار المتلهفة، التي تريد أن تمزق الحجب، وتتجاوز عواتق الزمان والمكان، لكي تعرف ما الذي يخبئه المجهول، وحاول أن يطمئن نفسه قائلاً: ما دام أنه يتجه إلى المعسكر في هذه الساعة المبكرة، وفي سيارة عسكرية، فلا بد أن في الأمر شيئاً ما . . إنه ـ على ما أتذكر ـ لم يفعلها من قبل!

وزاد اقتناعه رسوخاً، وهو يرى ثلاث ناقلات عسكرية محملة بضباط الصف والجنود، وهم يحملون سلاحهم، منطلقة صوب المدينة، وما لبثت أن تبعها ناقلات أخرى، كانت تقطعها بين الحين والحين، سيارات جيب تقلّ عدداً من الضباط.

قال وهو يحس بنشوة عارمة: لقد فعلوها إذاً؟ وشعر عندها كمن يلقي عن كاهله عناء ليل طالت ساعاته، وتمددت؛ لكي تطيل الفاصل بينه وبين الصباح..

ولم يكن بمقدور أيُّما شيء، أن يكتسح الفرحة الطاغية؛ التي ملكت عليه كيانه، لولا أنه تذكر ما سبب له شيئاً من القلق، فدخل الصالة مسرعاً، وأعاد المحاولة مع المذياع، دون أن يحظى بشيء..

إذاعة بغداد، بدأت بثها المعتاد، وليس ثمة جديد على الإطلاق.. الإذاعات الأخرى، تتثاءب بموسيقاها، وتطرح كلمات وجملاً، أفرغت من محتواها..

إذاً فمتابعة ما يجري في الشارع ـ تحت السمع والبصر ـ خير من التشبث بالمجهول، قال في نفسه، وعاد ثانية إلى مكانه من الشرفة.. والشارع الطويل الهادئ؛ الذي لم يكن يعكره أي شيء عبر هذه الساعة المبكرة، كان يحفل بحركة غير معتادة ذهاباً وإياباً، وكان يرى بين وقت وآخر، رجالاً مدنيين وهم ييممون بسيارات عسكرية وأخرى مدنية صوب المعسكر، وقال في نفسه مرة أخرى: إنه لأمر مشهود، ولن يستطيع صمت المذياع أن يغطي على هذا المشهود!

ولم يستطع أن يجلس، أو أن يظل قائماً يحدق في الشارع، فراح يذرع الشرفة بعصبية ذهاباً وإياباً، وينزل الدرج، لكي يقف قرب الباب الخارجي، ثم ما يلبث أن يرتقي الدرج ثانية، ويمد عنقه صوب النهايات البعيدة للشارع، عله يرى ويخمن ما يجري هناك في المعسكر.

وسمع سلمى تناديه، فلم يرد عليها، وأعادت النداء، فلم يشأ أن يجيب، ولكنه، دهش وهو يراها تهرع إليه بلهفة، صارخة:

ـ لقد فعلوها يا أبتاه!

سألها وهو متسمر في مكانه:

ـ ماذا؟

أمسكت به من ذراعه، وجرته إلى الداخل، وهي تقول بصوت يكاد يختنق فرحاً، بينما في عينيها تتحفز دمعتان حزينتان؛ لمغادرة موقعهما نحو الأهداب:

ـ كنت أدير عقرب المذياع، فإذا بصوت المذيع يعلن الثورة على طاغية العراق!

سألها مرة أخرى، وكأنه يقف على حد فاصل بين اليقظة والحلم:

ـ أسمعته بأذنيك؟!

ـ بالتأكيد، وها هو ذا يتابع قراءة البيان الأول!

وانقض عبد الرحمن على المذياع، وألصق به أذنه اليمنى، وكأنه يستمع بأعصابه وجوارحه كلها، ويدمدم مع نفسه:

ـ لماذا عذبتني إذاً طوال الليل؟!

❁ ❁ ❁



١٨

تلقى عاصم الدباغ نبأ الثورة بمشاعر غامضة، تتأرجح بين التوجس والخوف، وبين الرضا والارتياح.

مشاعره تلك، كانت كقطع السحاب المتناثرة ـ حينئذ ـ في السماء القريبة، وعند حافات الأفق، تتمدّد، وتتقلص، وتأخذ أشكالاً شتى، ولا

تكاد يقر لها قرار ولو للحظة واحدة، لكي يقال: إنها تشبه كذا، أو تقول شيئاً محدداً.. إن قطع السحاب المبحرة في السماء هكذا ـ منذ آلاف السنين ـ لتشبه الحلم؛ الذي تتميع فيه الأشياء وتفقد الأشكال تماسكها وصلابتها، ولا يتبقى ثمة حدود ـ على الإطلاق ـ تستقر عندها الشخوص والأماكن والأزمان.. ويصعب على الإنسان وهو يحلم، بل يستحيل أن يقول إن هذه محلته، وإن هذه داره، أو إن ذاك الرجل أخوه وتلك خطيبته!

ويتمنى عاصم أن يستقر على شيء، أن تكون لفكره ملامح فيها شيء من التميّز والوضوح والصلابة والديمومة، ولكن عبثاً.. يتمنى أن تتجاوز قناعاته صيغها الحسابية الهشة، أو تمخضها الرؤيوي؛ الذي يتغير ويتغير حتى يكاد لا يغدو شيئاً على الإطلاق! ويأخذه الدهش أحياناً أنه كان يغبط ـ للحظات ـ زميله القديم يونس عتالة، لقد قدر هذا أن يصير شيوعياً، مهما يكن أمر الدوافع؛ التي قادته إلى هذا الاختيار، وبالمقابل، فإن رجلاً كهاشم عبد السلام، يعيش متوحداً سعيداً بإيمانه الراسخ كالجبال العالية ذات الجذور؛ التي تخترق قشرة الأرض صوب الأعماق.. وتذكر خطيبته سلمى وقال: آه.. انتزعها من طبقة غائرة في وجدانه... وتذكر كيف أنها اختارت هي الأخرى، وكيف أنها تتلقى ـ الآن ـ النبأ، بالفرح الذي يعرف جيداً كم أنه محروم منه، إنه لا يدري حتى الساعة، هل أن ثورة كهذه تهمه بشكل من الأشكال، أم أنها لا تهمه على الإطلاق؟

وتمنى لو يملك القناعة، والحماس المتوهج، الذي يدفعه، لكي يذهب فيصرخ في وجه عبد الكريم قاسم في إذاعة الثوار، بل إنه يتمنى ـ ما أثار استنكاره للحظات ـ أن يكون واحداً من المعتقلين في عنابر معسكر الغزلاني، مدافعاً بحياته عن الجمهورية والزعيم!!

وقال في نفسه: هذا الحاجز العالي؛ الذي يفصلني عن الوطن ـ كما يسميه كلا الطرفين: القضية ـ هو نفسه الذي يفصلني عن سلمى.. آه لو كنت قادراً على أن أتوهج بالحماس والعشق مثلها، إذاً لقدرت على مواصلة رحلتي معها متوحداً، سعيداً!

وتخيل نفسه ـ للحظات ـ يحمل رشاشته، ويقف مع حشد من أبناء المدينة، يدافعون عنها ضد الغزاة الذين بدؤوا يتوجهون ـ الآن ـ إليها من كل مكان، ولسوف يتدفقون عليها بعد ساعات، لقد استبيحت الموصل قبل يومين، فردت على المحاولة بما تقدر عليه، وها هي ـ الآن ـ تتعرض لاستباحة أخرى..

ووجد نفسه يندفع وراء إغراء الحلم، فيقاتل، ويلتحم، ويناله ما ينال المؤمنين بقضية ما، فتخترق صدره رصاصة، ويسقط شهيداً مضرجاً بدمائه! وكانت سلمى ـ وهو يحلم ـ تقف قريباً منه، تدفعه، وتزداد به إعجاباً وهياماً! لكنه، ما لبث أن ارتد إلى لحظة الوعي القاسية، وقال في نفسه: حلم.. فها هو ذا يتفكك، ويفقد تماسكه.. ويضيع..

وغادر الصالة هارباً من أفكاره، إلى الحديقة الخلفية الواسعة المطلة على نهر دجلة، وهو يتدفق بعنف ربيعي مفاجئ عند أسفل الجرف الصخري العالي؛ الذي عرف أبوه كيف يختاره مكاناً لبناء البيت الجديد، من أجل أن يطل على بانوراما الطبيعة، وهي تعرض ملحمتها على شاشة كبيرة، ممتدة، لا يكاد يحجبها شيء.

إنه يتذكر كيف أنهم كانوا يجلسون هنا، في الربيع الماضي، لايعكرهم شيء، وكيف أنهم كانوا يشربون الجمال الواعد، هنا حتى الثمالة، أما الآن؟

وأجال عينيه في التسريحات المترعة بشجيرات الورد ذوات الألوان؛ التي لا حصر لها: الأبيض الناصع، والأرجواني، والأصفر، والبرتقالي، والوردي الفاتح، والأحمر القاني؛ الذي يغمق ويغمق حتى ليكاد يشبه في بعض الشجيرات القطيفة السوداء..

وكان النرجس ذو الرائحة الهادئة الحلوة، يودع آخر أيامه، منتشراً عند حوافي التسريحات، بينها وبين السيل الأخضر المنتشر على مدى مساحات واسعة، النرجس؛ الذي يحمل دوماً بشارة الربيع القادم، لكنه، سرعان ما يترك الساحة ـ بعد أقل من شهر من إعلانه المحبب ـ لأزهار أكثر قدرة على تحمل عنف الربيع، وحيويته، ونزواته المفعمة بالتدفق والشذا: القرنفل، العطر، والشبح الأصفر؛ الذي لا يكف عن التسلل عند كل مساء، عبر النوافذ والشرفات؛ لكي ينشر عبقه في كل حنية وعلى كل سرير.

ولم يكن عاصم قادراً ـ عبر دوامة الحيرة؛ التي تتآكله الآن ـ على أن ينظر، مجرد نظرة إلى الدعوات التي امتدت؛ لكي تقدمها له الأذرع الخضراء الريانة للعطر، والورد، والشبح.

وتوغل أكثر في الحديقة؛ لكي ما يلبث أن يقف بمحاذاة السور الذي يفصلها عن حافة الجرف؛ ذي الانحدار المفاجئ والسريع صوب النهر.

كانت (دجلة) ـ الآن ـ قد فقدت صفاءها ذا الزرقة الهادئة، وانسيابها الولهان صوب الجنوب، إذ بدأت مياهها تتكدر بالطين الكثيف الغامق؛ الذي يحلو للجبال والتلال والروابي أن تبعث به إليها كل ربيع، ومع الطين القادم من هناك، كانت دجلة تتلقى ـ بسخاء ـ هبات جديدة أكثر غنى وإثارة، مقادير هائلة من المياه الحمراء التي تتدفق من كل مكان لكي

تصب في النهر، هذه هي زخات المطر الإعصاري العنيف؛ الذي يجعل الأودية تسيل مزبدة؛ لكي لا ترتاح إلا في أحضان النهر القديم . .

وفيما بعد، عندما تزداد حرارة الشمس، وتصبح قادرة على مغازلة كتل الثلج المتحجرة القاسية ـ عند قمم الجبال الموغلة في الشمال ـ وإذابتها!! فإن وجبات أخرى من المياه، ما تلبث أن تصل إلى دجلة، التي يكون الوجد قد فاض بها، ولم يعد بمقدورها هضم وتمثل كل هذه الهبات القادمة، فما تلبث أن تغضب وتزمجر، وتقذف ـ بمياهها المتدفقة ـ حافات المدينة، كأنما تريد أن تشاركها معاناة الحمل المبهظة؛ التي يفوق طاقتها على التحمل، وإذ كان الجانب الأيمن للمدينة يتأبى على النهر ـ بسبب من ارتفاعه ـ فإن الجانب الأيسر، يتحمل الهموم مضاعفة، حيث يرى في أخريات كل ربيع، وهو يعاني من الاختناق غرقاً!!

ولم يخطر على بال عاصم ـ ولو لحظة واحدة ـ لماذا رفض عمه طلبه الملح بالرحيل إلى بغداد، سوى أنه نوع من العناد. . من الانسياق وراء تشبث ابنته غير المبرر، وربما، نوع من المشاركة السياسية فيما تشهده المدينة من أحداث، لكنه، ما خطر على باله أن الجواب قد يكمن هنا، فيما يراه، ويسمعه، ويشمه!

وقال في نفسه: أتراها تجدي محاولة أخرى لإقناعهما بالرحيل؟ و ردَّ بسرعة: لا أعتقد، فلقد بذلت عصر أمس كل ما بمقدوري، وتلقيت الجواب الأخير، وحتى لو كان هناك ثمة شيء من أمل، فمن لي بالوصول إلى هناك، وإعادة الكرة؟ وتذكر عيني سلمى العميقتين كبحر لا قاع له، وقال: كم أنا بحاجة إليهما في هذه اللحظات؛ إذ تتولاني رغبة عاتية بالغوص إلى الأعماق، هروباً مما يشهده سطح المدينة من أحداث؟!

وسمع أمه تناديه: ألا تتغذى؟ لقد أصبح الطعام جاهزاً. . ونظر إلى ساعته، فإذا هي تجاوز الثانية ظهراً، وتساءل: أتغذى؟ وأحس بشيء من التأنيب وهو يتذكر سلمى وأباها، وكل الذين يقفون الآن على الحافة بين الموت والحياة. . بين الانتصار والهزيمة، يدافعون عن قضيتهم بمواجهة قوى تفوقهم بكثير. . تذكرهم، وهم صائمون، وهو لا يدري، هل سيتاح لهم الإفطار في موعده أم لا؟

ونادته مرة أخرى فأجابها بعصبية:

ـ لا ليس في نيتي أن أتغذى. .

وسمعها تقول:

ـ ولكنه مضى على موعد الغداء أكثر من نصف ساعة!

أي موعد هذا والمدينة تتلوى جوعاً؟!

لم يرد عليها هذه المرة، ومد بصره إلى الجهة المقابلة، فيما وراء الحافة الشرقية للنهر، حيث تتكاثف وتزدحم غابات السرو والصنوبر والسنديان، بظلالها القاتمة الرطبة، وحيث تروح وتجيء مساء كل يوم، أسراب لا حصر لها من الطيور مبحرة بهدوء، صوب الشمال أو الجنوب، ملتزمة نظاماً دقيقاً يبدو أن عمره آلاف السنين. وتنهد وهو يستل ثانية، من طبقة ما من أعماق قلبه، أمنيته؛ التي كادت أن تنسى. . الرحيل، مثل هذه الطيور، جنوباً، بحثاً عن الدفء والأمان!

❁ ❁ ❁

١٩

أوشك النهار أن ينقضي، وحنا جرجس ينتظر الصلب بين ساعة وأخرى. . ويونس سعيد عتالة يستعيد التصور المحموم؛ الذي ارتسم

صبيحة اليوم في ذهنه، وراح يعصف بعنف بين حين وحين، فيما يشبه الحمى المحرقة؛ التي تهيمن على العقل والجسد، فتجعلهما أسيري أهوائها المتقلبة، وإلحاحها اللجوج، ولفحاتها؛ التي لا تطاق..

وعبر النوافذ الصغيرة الأربع، المعلقة في أعالي الجدران، قريباً من السقف المعدني، والمشبكة بالحديد، كانت ترى بوضوح آخر، رشقات الضوء، وهي تخفت وتتلاشى، وتخفق خفقاتها الأخيرة الهادئة.. ثم تغيب..

آه.. لو يلغى الليل من نظام الوجود ـ قال حنا في نفسه ـ فإني لا أطيق ليلة أخرى كتلك! إنه لأهون على الإنسان أن يموت أو يقتل في وضح النهار، على أن يتم ذلك في الظلمة.. إنه سيغدو ميتتين.. وأحس مرة أخرى، بموجة من الرعب المحموم؛ الذي لا يرحم، وقال وهو يصطك من البرد: ترى، متى سينتهي هذا العذاب؟

وسمع يونس يقول له:

ـ إن كل ساعة تمر بنا، تقربنا من الخلاص.. و..

قاطعه حنا وهو يزحف؛ لكي يكون أقرب إليه:

ـ لا أعتقد أن ذلك يعني شيئاً..

تساءل يونس وهو يدعك صدره، بعد أن فتح زرين في بجامته:

ـ ماذا؟

أجاب حنا بالهدوء نفسه:

ـ لا أعتقد أن ذلك يعني شيئاً!

قال يونس بعصبية:

ـ إن الزعيم يضيق الخناق عليهم، ولا أعتقد أنه سيدعهم يواصلون تآمرهم أكثر من هذا، إن لديه الجيش والقوة الجوية، وهو قادر على سحقهم في أية لحظة!

قاطعه حنا مرة أخرى:

ـ وبقدر ما يتعلق الأمر بنا، فإنهم ـ بدورهم ـ قادرون على سحقنا في أية لحظة.

تساءل يونس:

من؟!

أشار حنا إلى مقر قيادة اللواء، حيث يقيم الشواف وكبار ضباطه، دون أن يجيب. . .

قال يونس بثقة:

ـ لو أنهم ينوون قتلنا، لكان مبيتنا الليلة تحت الأرض، لا في هذه القاعة!

أجاب حنا وهو ينتزع ابتسامة باهتة؛ لكي يرسمها على وجهه:

ـ وما أدراك أننا لن ننام هذه الليلة هناك؟

حاول يونس أن يخرج قليلاً عن الدوران في هذه النقطة المظلمة، فهمس في أذن حنا:

ـ أتعتقد أنهم قدروا على أن يفعلوا شيئاً؟

لم يجبه حنا، بينما واصل يونس وهو يلصق فمه في أذن زميله:

ـ هنالك همسات تدور في القاعة، تؤكد فشل المحاولة، وإن ما كان يؤمله الخائن الشواف من تحرك مواز في بغداد، لم يتحقق منه

شيء، وإن المتآمرين يجابهون ـ الآن ـ مصيرهم منفردين. . إن المسألة مسألة وقت فحسب!

تساءل حنا:

ـ وماذا ينتظر الزعيم؟ ـ أما كان بمقدوره عبر ساعات النهار الطويلة، أن يقلبها على رؤوسهم؟

أجاب يونس وهو يعيد شد أزرار بجامته، وينزلق ثانية في فراشه:

ـ سيفعلها، وسوف ترى. .

قاطعه حنا وهو يشير غرباً:

ـ ألا يجوز أن يأتيهم الإسناد من هناك، فيقلب الموازين؟

قال يونس:

ـ لو كان في نيتهم أن يفعلوا ذلك، لفعلوه. .

وما لبث حنا أن وجد نفسه ينساق ثانية إلى الهاجس؛ الذي يضيق الخناق عليه:

ـ وهل يخدمنا انتصار الزعيم في شيء؟

كاد يونس أن يصرخ، وهمّ يعتدل ثانية، ويتساءل: ماذا؟!

أشار عليه حنا أن يخفض صوته، وقال هامساً:

ـ سينتقمون منا. . سنكون أكباش الفداء. .

أجاب يونس بموجة حماس مفاجئة:

ـ ليكن، فمن أجل الجمهورية والزعيم، تهون الأرواح. .

قال حنا بسخرية مكتومة:

ـ هكذا؟!

واصل يونس بالحماس ذاته:

ـ إن الإنسان إذا اختار طريقاً، فعليه أن يناقشه، حتى لو كلفه ذلك حياته..

لم يجد حنا أيُّما جدوى من الاستمرار في مناقشته.. إن كل ما كان يريده، هو أن يجد من يشاركه الإحساس بالخطر الجاثم فوق الأنفاس.. باحتمال القتل الوشيك؛ الذي لا يعرف أي منهم متى سيقع، ولا كيف سينزل على الرؤوس.. وأحس بشيء من الحسد تجاه يونس وهو يجده يقدر ـ في اللحظة المناسبة ـ على أن يحدث فاصلاً، يحاول أن يقتنع به هو على الأقل، بينه و بين الخوف.

كيف يكون أبلهَ هذا؛ الذي يعرف كيف يتحايل على الخوف؟ ولكنه، عاد فقال في نفسه: بالعكس، إن الذكاء سلاح لعين في مآزق كهذه، إنه يكشف ويجسد، ويضع الإنسان عارياً أمام مصيره.. وتمنى حينذاك: لو كان بليداً إذاً، لَقَدِر على طرد الهاجس؛ الذي يدمر أعصابه ولو لدقائق معدودة..

كانت الظلمة قد أطبقت تماماً على القاعة، عندما أشعل المصباح الوحيد؛ الذي يتدلى من سقفها بضوئه الخافت؛ الذي لا يكاد يغني شيئاً.. وينفتح الباب؛ لكي يتسلل منه ضابط صف، وجنديان، لمحهما حنا وهما يحملان قصعتين كبيرتين، تتضمن إحداهما أرزاً، والأخرى مرقاً ووضع ضابط الصف حزمة من الصمون الأسمر المتيبس إلى جوار القصعتين، ثم ما لبث والجنديان أن غادروا القاعة.

وقال يونس، وهو يزيح البطانية الغامقة التي يتدثر بها:

ـ ها قد جاء العشاء.. ألا تشاركنا الطعام، أم أنك ما تزال مستمراً في الصيام؟

أجاب حنا وهو يمد عينيه؛ لكي يعاين ما تحتويه القصعتان:

ـ صيام؟

قال يونس وهو يهمّ بلبس نعليه:

ـ لا تُسمِه صياماً.. سَمِّه إضراباً عن الطعام، ولكن الجوع، لا يرحم يا حنا.. هيا..

تقدم إلى وسط القاعة؛ لكي يشارك المعتقلين التهام الطعام بينما ظل حنا ملتصقاً بالجدار، وما لبث أن سمع يونس يقول له وهو يبذل جهداً مضاعفاً لازدراد لقمة كبيرة كادت ذيولها تفلت من فمه:

ـ إن الصمون لذيذ، إنه مليء بالنخالة.. إذا لم يعجبك الأرز والمرق، فإن بمقدورك أن تلتهم واحدة منها..

حاول حنا أن يرفض مرة أخرى، ولكنه كان يحس بوخز الجوع، وبأنه لم يعد بمقدوره أن يقاوم.. وزاده إغراءاً أنه رأى جميع المعتقلين في القاعة، يشاركون في تناول الطعام بشهية، وأنه الوحيد الذي ظل بعيداً..

وناداه يونس مرة أخرى:

ـ ها.. ماذا قلت؟ أناولك واحدة منها؟

فأجابه على استحياء:

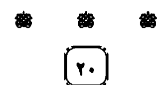
ـ لا.. سوف آتي لآكل معكم..

تناول يونس بسرعة صمونة أعطاه إياها قائلاً:

ـ هيا، اغمس قبل ألا يتبقى لك شيء!

وأحس حنا ـ وهو يتناول اللقيمات الأولى، بشيء من التقزز ـ وتحفزت معدته؛ لكي تقذف ما تلقته من طعام، وتصور أنه سيتعرض

للسخرية من رفاقه وهم يرونه عاجزاً عن تناول الطعام، وإنهم قد يشكون بقدرته على التحمل كالرجال، وإن يونس، أول من سيرميه بذلك، فبذل جهداً قاسياً من أجل إرغام معدته على قبول ما لابد له من قبوله، ثم ما لبث أن عثر على حل وسط قد ينقذه من المأزق، فأخذ صمونته، وتراجع بها صوب فراشه، حيث راح يقضمها بهدوء. .



استيقظت سلمى متأخرة بعض الشيء. . توقعت أن يكون أمس الأحد يوم الفصل، وأن شيئاً ما سيحدث، يتصدى مع ثورة الموصل هناك في العاصمة، فيقلب الموازين، ويمنح الثورة قدرتها على التحقق والانتشار، وكانت كل دقيقة تَمرّ، ليست بدقيقة، لكنها أطول بكثير. إن عقرب الساعة المعلق في صدر الصالة الداخلية، لم يعد يعني شيئاً. . وتحوله ـ ببطء شديد ـ من التاسعة إلى العاشرة، ومن الثانية عشرة إلى الواحدة، ليس تغيّراً في حساب الزمن على الإطلاق، ما دام أنه لا يعِد بشيء، لا يتمخض عن الحدث، أو يتكشف عن البشارة. .

قبل يومين فحسب، كان هذا الزحف الزمني؛ الذي يطل من ميناء الساعات يعني شيئاً كثيراً، ويقرب من الهدف المرتجى. . أما الآن فلربما تمنت سلمى أن يحرن الزمن، وأن تكف عقارب الساعة عن الدوان.

إن عبد الكريم قاسم، يحكم قبضته على بغداد، وصرخات مؤيديه هناك، تكاد تصم الآذان. . والجيش لا يزال محافظاً على تماسكه، وهو الآن على أهبّة الاستعداد؛ للانقضاض على المدينة؛ لكي يطويها وهي تعاني القهر والحزن والانتظار اللامجدي لمعجزة تجيء من المجهول. .

وثمة أنباء مقلقة عن غزاة ييممون وجوههم شطر الموصل من كل مكان، وأنها قد تتعرض بعد ساعات لاستباحة أخرى تقلب الموازين، وتجعل الأخضر هشيماً. .

وبحركة لا إرادية، فتحت ـ للمرة العشرين ـ زر المذياع. . إذاعة بغداد، لا تزال على حالها من اللا اكتراث. . تبث أغانيها العاطفية، كأن لم يحدث شيء. . تقاطعها بين الحين والحين برقية في تأييد الزعيم من القادة العسكريين، أو من حشود الناس. . وإذاعة الثورة في الموصل، تستمر مكافحة؛ لكي توصل صوتها بصعوبة إلى أبعد مدى مستطاع، وتتحول نبرتها شيئاً فشيئاً، إلى ما يشبه الاستغاثة؛ لكسر الحصار. . استفزاز تريد أن تحرك به أولئك الذين اختاروا الوقوف على الحد الفاصل بين الثورة والسلطة، يتخوفون أن يمدوا أقدامهم خطوة واحدة، خشية أن يجرفهم التيار، أما أولئك الجيران؛ الذين شجعوا الحركة ووعدوها بالدعم والإسناد لحظة تعلن عن نفسها، فإنهم الآن، يلتزمون الصمت، ويبدو أنه ليس في نيتهم ـ أبداً ـ الاستجابة للنداء الذي يقطر مرارة وحزناً. . لماذا؟ يبدو أنهم لا يؤمنون بمنطق المجازفات، أو يتعلمون من العدو؛ الذي انتصر بالمجازفة، أو يضعون أقدامهم في أرض، قد لا تكون مفروشة بالورد، مأمونة من المتفجرات والألغام!

وبين الحين والحين، كانت زخات من الرصاص تخترق الفضاء القريب، قادمة ـ حيناً ـ من معسكر الغزلاني إلى الجنوب، متدفقة ـ حيناً ما ـ من مكان آخر من البلد، حيث بدأ بعض أنصار السلطة، يثبتون أقدامهم على ما يبدو.

وتذكرت سلمى. . يوم أمس كانت الثورة تحكم قبضتها على المدينة، وكان ظهرها مغطى تماماً بأبناء المدينة المسلحين، وهي

تتوجه بصدرها مفتوحاً ومتحدياً صوب بغداد.. ولكن.. وبعد مضي يوم بكامله على الوقفة المتماسكة، وبعد أن لم يحصل ما كان مؤملاً حدوثه في بغداد، امتداداً للثورة، وتصادياً معها، بدأ الموقف يهتز، وأصبحت المدينة هدفاً قد يتعرض للضرب في أية لحظة، وأعلن عن جائزة مقدارها عشرة آلاف دينار لمن يأتي بالعقيد الشوّاف حياً أو ميتاً.. وثمة ما تخمنه سلمى: إن الزعيم، كان ينتظر أن يقضي على الثورة من الداخل، فلما تأبت المدينة إلا أن تواصل تحديها فإنه ربما يلجأ إلى ضربة، قد تكون أكثر قسوة مما يتوقعه الجميع..

وسمعت أباها يناديها:

- ماذا وراءك يا سلمى؟

كان يجتاز عتبة غرفة نومه باتجاه الصالة الداخلية؛ لكي يقترب أكثر من المذياع..

- ارفعي صوته قليلاً.

قال وهو ينحني؛ لكي يلتقط الأصوات المختنقة، المشوشة، لإذاعة الموصل..

- لا شيء يا أبي..

- حاولت أن أغفو قليلاً، فلم أستطع، لعن الله الأرق، إنه يكاد يقتلني بالصداع..

قالت سلمى وهي تقرب كرسياً:

- اجلس، سأذهب لتنظيف المطبخ، فلعلك تسمع شيئاً..

طوح بيده اليمنى، ثم ما لبث أن حشرها في جيب روبه البني الغامق؛ لكي يخرج مسبحته الأثيرة الحمراء، ويدعك حباتها وهو

يسمر عينيه في لوحة المذياع الكبير؛ الذي يعلو دولاباً خشبياً أسود في زاوية الصالة، وحاول أن يرفع صوته؛ لكي يصل إلى سلمى:

ـ هل سمعت زخات الرصاص؟

أجابته وهي تدلك قدراً من الفافون الأبيض:

ـ إنها أقرب مما نتصور..

ـ لعلها هنا في المعسكر..

ـ ليتها اقتصرت على المعسكر وحده..

لم يسمعها عبد الرحمن جيداً، فهتف:

ـ ماذا؟

ـ إنها تأتي من أماكن أخرى، وليس من المعسكر وحده..

دَعَكَ خرز المسبحة وهو يدمدم:

ـ إذاً، ما الذي ستفعله بغداد؟ وأين وعود دمشق؟ أين؟

وأحسَّ بموجة من الانقباض، تكاد تعتصر قلبه كآبة، ثقيلة لم يذق لها طعماً من قبل.. وفي محاولة للهروب منها، لكسر طوقها.. لاستعادة شيء من فرحه القديم.. فرحه؛ الذي ارتقى عبر اليومين السابقين مسالك، وشعاباً جبلية صعبة، معقدة، وهو يتقافز كوعل بري سعيد، لكي يقف لدقائق عند إحدى القمم، ويطل بنشوة عارمة على كل الذي يجري تحت.. غادر الصالة إلى جلسته الأثيرة في الشرفة.. قبالة الخضرة، والورود البرية، والسماء المفتوحة..

دهش إذ لم يجدها ترحب به، أو تقول له شيئاً.. لطالما حدثته بألف حديث وحديث، ولطالما قالت له كلمات وجملاً مما لا يقوله إنسان، أو

مذياع، أو أيما شيء آخر. . تعابير ما، صنعتها الأحرف والأصوات، ولا تلبستها كثافة المادة الملموسة. . إنما كانت تحكي بلغتها الخاصة، وهي بحق، لغة شفافة؛ لأنها تصوغ معانيها بالروائح والألوان. .

كانت ثمة باقة من شقائق النعمان؛ التي تقطر حمرة، وتتلوى سوقها بدلال، تنتشر قريباً من حافة الشارع، ويبدو أن عجلةً ما عسكرية مسرعة، قد انحرفت قليلاً عن الطريق الأسفلتي باتجاه الحافة، فطوحت بالسوق والأوراق، وها هي الآن، تحاول أن تنهض مرة أخرى، دون جدوى، لقد تكسرت السوق بما فيه الكفاية، وتبعثرت حراشف الشقائق ذات الحافات السوداء، فلم يعد بمقدورها أن تنهض مرة أخرى.

ولمح سيارتي جيب تمرَّان إلى المعسكر، وأخرى تتدحرج من هناك، موغلة في الشارع صوب المدينة، وقال في ذات نفسه: إن هذا لا يعني شيئاً، ولكن؛ الذي يقلق هو زخات الرصاص. . إذا كانت المدينة في قبضة الثوار، فمن الذي يجرؤ على أن يلعب بالرصاص؟

وسمع صوت طائرة تئز من مكان بعيد. . ثم ما يلبث أزيزها أن يزداد لحظة بلحظة، ودقيقة بدقيقة. . ومد عينيه هنا وهناك، وكأنه يريد أن يعرف المكان؛ الذي تنساب فيه الطائرة، والجهة، التي قدمت منها. . ثم ما لبث أن تأكد له أنها قادمة من هناك. . من الجنوب. . وما لبث أن تأكد له أيضاً، أنها ليست طائرة واحدة، ولكنهما اثنتان. .

وتساءل: وهو يرتجف قليلاً، ودقات قلبه تزداد تسارعاً وعدداً. . ما معنى هذا؟

وللحظات، اختفت الطائرتان عن مدى رؤيته، فاطمأن بعض الشيء، لكنهما ما لبثتا أن ظهرتا من جديد، أقرب هذه المرة، وأشد

إثارة وبريقاً.. وخيل له أنهما تتباطآان قليلاً، فأمعن النظر، فتأكد لديه ما رآه بخياله، بل إنه رآهما بوضوح، وكأنهما تتوقفان بالكلية عن الحركة، وتتسمران في مكان ما من السماء القريبة، للحظات، ثم ما تلبثان أن تقذفان بسيل من الصواريخ؛ التي تكاد ألسنتها تمتد؛ لكي تصل إلى المكان؛ الذي يقف فيه، وأحس لدهشته، أنه يكاد يلمس ذيول النار، ثم ما لبثت أصوات تهز الأعصاب أن تفجرت في السماء والأرض المحيطة، أعقبتها موجات كثيفة من الدخان الأسود المتصاعد بعنف من أبنية المعسكر وباحاته.. ربما النار والدخان، كان يتخيل أنه يسمع أصواتاً بشرية، بعضها ينادي، وبعضها يصرخ، وبعضها يستغيث.. ربما.. ولم يلتفت إلى سلمى؛ التي هرعت مصفرة الوجه، تسأله عما يجري، ولكنها أعادت السؤال وهي تصرخ:

ـ ماذا يا أبتاه؟

استعاد عبد الرحمن شيئاً من هدوئه بعد أن خفتِ الأصوات، ولم يتبق إلا الدخان؛ الذي يندلع بغزارة من مكان ما في المعسكر؛ لكي ما يلبث أن يسوّد صفحة السماء..

ـ طائرتان قادمتان من بغداد، قصفتا المعسكر..

تراجعت سلمى؛ لكي تسند ظهرها إلى جدار الشرفة، خشية أن تخونها قدماها، وقالت بصوت مرتجف وهي تكاد تسمع وجيف قلبها:

ـ ليس غير مقر القيادة.. إن إحساسي لايخطئ..

وتراجع عبد الرحمن هو الآخر؛ لكي يجلس على مقعده مرة أخرى وهو يتساءل:

ـ أتراه لا يزال هناك؟

أجابت سلمى:

ـ وأين يكون إذاً؟

عاد عبد الرحمن؛ لكي يدعك مسبحته وهو يقول:

ـ إذاً، فقد قتلوه. . ومعنى ذلك. .

قاطعته سلمى وهي تتشبث بالمجاهل:

ـ ليس لأحد أن يجزم. . ثم من قال بأن الطائرتين أصابتا هدفهما بدقة؟!

أجاب عبد الرحمن وهو يعاني من انقباض ساحق:

ـ قلبي يقول ذلك يا ابنتي!

طرفت عينا سلمى للحظات، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكنها آثرت الصمت!

ونهض عبد الرحمن وهو يقول:

ـ هيا، لندخل، فإني أحس بشيء من البرد يتسلل إلى عظامي. .

وما لبث صوت سيارة إسعاف أن اخترق سمعهما بحدة، وما هي إلا لحظات، حتى كانت السيارة تجتاز الشارع مسرعة، تحرسها سيارة جيب، ينتصب فيها ضابط برتبة مقدم، يحمل رشاشته. . وأوغلت السيارتان باتجاه المدينة، ثم ما لبثتا أن غابتا عن العيان. .

❁ ❁ ❁



انفتح باب القاعة بعنف، ولمح حنا جرجس حشداً من الجنود والبنادق الرشاشة تتراقص بأيديهم وهم يصرخون. . فاجتاحته موجة

قاسية من الرعب، وانكفأ على نفسه متقوساً وهو يدعك بطنه بيديه، حيث تفجر ألم مفاجئ، وقال في نفسه: إذاً، فإنه القتل، فعلام عذاب الأيام الطويلة؟ والتفت إلى يونس عتالة بنظرة غائمة، وكأنه يريد أن يقول له: ألم أقل لك؟ إنهم سيقتلوننا منتصرين أو منهزمين، وإن ضربة بغداد ستجعل منا أكباشاً للفداء؟ لكنه فوجئ بيونس وهو ينهض من مكانه قافزاً، ويصرخ كالمجنون:

ـ إذاً، فقد قتل الخائن؟

ولأول مرة أتيح لحنا أن يرى ثلة الجنود وهي تتوغل في القاعة أكثر، ورآهم وهم يرقصون، ويغنون، وتتردد بين لحظة وأخرى عبارة ما، سرعان ما تبينها: «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة!!»، ثم تبين أن بعضهم يحمل بالفعل حبالاً تتفاوت أطوالها، راحوا يلوحون بها في الفضاء، وهم يرددون عبارتهم تلك، وسمع أحدهم يصرخ:

ـ ماذا تفعلون هنا؟ هيا اخرجوا.. إن عصابات المتآمرين، لا تزال تسيطر على البلد، وقد آن الأوان لسحقها.. الموت لأعداء الشعب..

تجمع المعتقلون وسط القاعة، وأحاطوا بالجنود.. لم يصدقوا أنفسهم أول الأمر.. كان السهر والخوف والإعياء، قد أحدث فاصلاً بين وعيهم، وبين ما يرونه ويسمعونه، ثم مالبثت موجة حماس مفاجئة أن شملتهم جميعاً، فراحوا يهتفون مع الجنود، ورآهم حنا الذي كان ـ حتى تلك اللحظة ـ ملتصقاً بالجدار وهم يرددون معهم: " ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة "، فلم يصدق نفسه هو الآخر!

إذاً، فقد حُرّرنا؟! ونهض قائماً في هدوء وهو يقول في نفسه: ليس هنا.. ليس هنا.. واجتاز القاعة، ولوح بيديه وهو يحاذي

التظاهرة الصغيرة في طريقه إلى الباب، لكنه ما لبث أن تذكر، فعاد ثانية، وتقدم من أحد الجنود، وهمس في إذنه:

ـ كيف سنرجع إلى البلد؟ هل ثمة ما يقلنا إلى هناك؟

ولمحه يونس، فكفَّ عن الصراخ، وسحب نفسه بصعوبة من بين زملائه متوجهاً حيث يقف:

ـ ماذا يا حنّا؟

أجاب هذا:

ـ كنت أسأله كيف سنرجع إلى البلد.. إن الطريق لا يزال غير مأمون.. فهل هناك سيارات لنقلنا؟

قال يونس هو يهتز من الضحك:

ـ سيارات؟ أتظل بورجوازياً، حتى وأنت تناضل ضدهم؟

أجاب حنا وهو يجره من كتفه:

ـ ولكننا مرهقون يا يونس، ولن تقوى سوقنا على حملنا أربعة كيلو مترات، أو خمسة..

قال يونس وهو يبعد بأصابعه سيل العرق؛ الذي أخذ يتدفق من جبهته الضيقة، ويرشه على الأرض:

ـ السيارات كثيرة.. لا ريب أن هناك عشرات من اللوريات تقف عند الشارع.

وسمعه الجندي، فقال وهو يريح عقب بندقيته على الأرض:

ـ بكل تأكيد.. إنها كثيرة جداً.. وهي تنتظركم هناك... وأشار إلى شارع الغزلاني..

قال يونس وهو يهم بالعودة؛ لكي يواصل الهتاف والأهازيج مع رفاقه:

ـ أما أنا، فسأرجع مشياً.. إن هدفي ليس بعيداً..

سأله حنا:

ـ وأهلك؟ إنهم بانتظارك الآن بكل تأكيد، وهم قد لا يصدقون أنك نجوت من موت محقق..

أجاب يونس وهو يتوغل أكثر في قلب دوامة الصراخ:

ـ ليس قبل أن أصفي حسابي!!

فكأن خاطرة ما كانت غائبة عن عقل حنا جرجس، التمعت اللحظة، على حين غفلة، وتبدت الرؤية واضحة أمام عينيه كشيء متجسد، وقال في نفسه: أنا كذلك عندي حساب سأسعى إلى تصفيته، ولكن، ليس قبل أن أطمئن على زوجتي وأولادي..

وصاح وهو يكافح؛ لكي يوصل صوته إلى يونس:

ـ ألا ترى أن من الأولى أن نرجع معاً؟ لقد جئنا سوية، وهكذا يجب أن نعود.

لم يسمع يونس كلمة مما قال، ولمحه حنا وهو يتحدث إلى جندي يقف قريباً منه، وإذ كان الجندي يرى صعوبة في إدراك ما يريده يونس، جره هذا من ذراعه وقال له:

ـ إذا لم تستطع أن تعطيني بندقيتك، فحربتها على الأقل..

قال الجندي وهو يتشبث بالبندقية أكثر:

ـ ولكني مسؤول عنها.

ضحك يونس وهو يربت على كتف الجندي:

ـ أية مسؤولية هذه؟ وأمام من؟

لم يجب الجندي، بينما واصل يونس:

ـ لقد أفلت الزمام يا أبا خليل، ولم يعد بمقدور أحد اليوم أن يحاسب أحداً. .

قال الجندي:

ـ ولكن. .

عاد يونس؛ لكي يجمع العرق المتناثر على جبهته، وينثره بسبابته على الأرض. .

ـ لا تقل لكن. . فإننا جميعاً ندافع اليوم عن الزعيم. . ونناضل أعداء الجمهورية. . أعطني حربتك. .

لم يجد الجندي بُدّاً من انتزاعها من البندقية، وتسليمها ليونس، وصرخ هذا وهو يلوح بها في الهواء:

ـ الموت لأعداء الجمهورية. . يحيا الزعيم. .

وردت عليه حزمة من الأصوات المبحوحة:

ـ يحيا الزعيم. .

وإذ رأى حنا ألا فائدة من إقناع زميله، وهو يكاد يندمج في الدوامة، ويغدو جزءاً منها، يصعب فصله. . عاد لكي يخطو صوب الباب مرة أخرى. . ووقف هناك للحظات، لكي يطل على مشهد دوامات الصراخ، والرقص، والتلويح بالبنادق والحراب والحبال، تكرر نفسها هناك وهناك، في باحات المعسكر وممراته، وعند حافة

شارع الغزلاني، حيث كانت تقف ـ فعلاً ـ عدة لوريات، تنتظر من يمتطيها إلى المدينة. .

وأحس بشيء من الارتياح وهو يطمئن على وجود السيارات، وأدرك أنه لم يعد يفصله عن بيته سوى دقائق معدودات، لكن القلق ما لبث أن اكتسحه وهو يتصور هؤلاء جميعاً، يؤثرون البقاء لساعة أو ساعتين هنا، كما قرر يونس أن يفعل. . وضيق عينيه وهو يمسح زجاج نظارته بطرف رباطه الأحمر المتجعد، فرأى هذه الدوامات البشرية تدور على نفسها بحركة جنونية، وتضرب أقدامها بالأرض، وتلوح بأيديها، وبما تحمله هذه الأيدي: بنادق، وحبالاً، وعصياً، وسكاكين وبلطات. . ورآها وهي تتسع شيئاً فشيئاً بما ينضاف إليها من أجسام تتدفق عليها من كل مكان، بالخاكي، والملابس المدنية على السواء.

للدماء المحمومة نفسها، والرغبة العاتية بالانتقام، والتعطش الذي يكاد المرء يلمسه. . للدم. . والنداءات المبحوحة بالجمهورية والزعيم. . وهَمَّ حنا أن يتقدم؛ لكي يلامس واحدة من هذه الدوامات، ويندمج فيها. وهناك، يطلق صرخة كانت تحتبس في أعماقه أياماً طوالاً. . وكان يتمنى أن يفرغ في هذه الصرخة كل عذاباته ومخاوفه؛ التي أكلته كمناشير حادة لا ترحم عبر أيام الرعب تلك. . . ولكنه رأى ـ في اللحظة الأخيرة ـ أن وضعه لا يسمح له بهذا، وأن عليه أن يظل بعيداً عنهم بعض الشيء. . وراح يطمئن نفسه، وكأنه يتمنى لو يصل حلم يقظته؛ الذي يتشكل في داخله، إليهم. . إلى هؤلاء المناضلين؛ الذين يعرفون كيف يعبرون عما يعتمل في نفوسهم. . يتمنى لو يتحول هذا الحلم إلى صوت. . إلى تشخيص

مشهود يتقدم إليهم؛ لكي يقول لهم: إن حنا جرجيس، ليس بأقل منكم رغبة في الانتقام، ومحبة للجمهورية وزعيمها . . ولسوف ترون . .

وسرعان ما تذكر أهله مرة أخرى، وقال وكأنه يقرّع نفسه: ماذا تفعل هنا وهم لا يعرفون أحيٌّ أنت أم ميت؟ أما يكفيهم عذاب اليومين الفائتين؟

وبقرار أكثر حزماً هذه المرة، قرر أن يتجه إلى أقرب سيارة عسكرية، عله يقنع سائقها بأن يوصله ومن يرغب في التوجه إلى المدينة، لكي يبلغ به برج الساعة، قريباً من الزقاق؛ الذي يقبع فيه بيته، هناك، حيث تنتظره الزوجة والأولاد . .

ولم يشأ أن يخطو أخيراً صوب هدفه قبل أن يطل من باب القاعة؛ لكي يعرف ما الذي يفعله يونس، فلعله يرغب أخيراً في العودة معه . .

كان يونس عتالة ـ الآن ـ يقف قبالة الدوامة البشرية؛ التي نال منها الصراخ، يتطاير الشرر من عينيه الضيقتين، ومع الشرر الغاضب، كان بمقدوره أن يرى شيئاً آخر ليس من السهولة تبينه للوهلة الأولى، ولكن بالشم ـ ربما ـ يستطيع المرء أن يهتدي إليه . . رائحة الدم . .

مبحوحة. يقول كلمات متقطعة . . مبحوحة . . غير واضحة . . وكان يستعين على توصيلها للآخرين بالإشارة، والإيماءة، والحركة . . وكان يجد صعوبة كبيرة وهو يواصل مهمّته، يبدو أنه ما جربها من قبل قط . . بينما استمرت قطرات العرق تنبجس من جبهته الضيقة بغزارة، وتنزلق صوب بعضها، لكي ما تلبث أن تشكل ساقية صغيرة تنساب صوب الذقن، وتنحدر من هناك، دون أن يكلف يونس نفسه عناء تجميعها بإصبعه، ورشها على الأرض كما كان يفعل في الدقائق الأولى . .

واستطاع حنا ـ وهو يمد رأسه أكثر عبر البوابة ـ أن يلتقط بعض الكلمات بصعوبة . . خائنة. خائنة . . خائنة. متآمرون . . العقاب . . .

أذناب هاشم عبد السلام.. لقد آن الأوان أيها الرفاق.. هيا.. هيا.. يحيا الزعيم! لتحيا الديمقراطية.. سُحقاً للمتآمرين.. وما تلبث صرخاته أن تتصدى من خلال حناجر الآخرين، فتقرع الجدران، وتتدفق لكي تتلاشى في الفضاء..

وانتصب قبالته ـ للحظات ـ هاشم عبد السلام.. بلحمه ودمه.. بجبته وعمامته.. بلحيته القصيرة وعينيه السوداويتين الواثقتين.. بنظراته؛ التي كان يحس إزاءها دوماً أنها تلمس الأرض والأشياء، ثم ما تلبث أن تتجاوزها صوب المجهول؛ الذي لا يلمس ولا يرى..

وكاد أن يصرخ: هاشم؟ ولكن هذا اختفى فجأة، كما ظهر، وها هو حنا يجد نفسه وحيداً، وهو يقول: لا بأس يا هاشم، فما هي إلا ساعة أو ساعتان.

وأدرك أن يونس عتالة ليس في نيته أن يرجع معه، وأنه الآن يفرض نفسه على حشد من المتعطشين للانتقام، وأنه قد يسوقهم بعد قليل إلى مكان ما، لكي تجد الرغبات المكبوتة فرصتها للتحقق.. وحنا لايعرف هذا المكان، لكن زميله والمحيطين به، سيذهبون إليه حتماً، وسيجد يونس نفسه وقد تحقق بما كان يحلم به دوماً، ليس فقط للانتقام ممن كان يجد نفسه دونهم مكانة، ولكن تولي زمام القيادة لحشد من الناس يتحركون بأمره لتحقيق مهمة ما.. إن يونس قد غدا أخيراً شيئاً أمام نفسه، وأمام الناس..

وقال حنا وهو ينفصل عن المشهد بصعوبة، وينحدر عبر المرتفع الطيني الواطئ صوب حافة الشارع، حيث تقف اللوريات: إنه ليس وحده بالتأكيد.. ولسوف يعرف.. يقيناً سوف يعرف..

❀ ❀ ❀

٢٢

كان عبد الرحمن يقف في الشرفة المطلة على الشارع، يعتصره إحساس قاس بالاكتئاب، حيث لم يتبق على موعد الإفطار سوى أقل من ساعتين، حينما طرقت سمعه أصوات مكتظة، وصرخات مبحوحة، تقطعها ـ بين لحظة وأخرى ـ طلقات الرصاص، فمد رأسه صوب المعسكر حيث يتلوى الشارع، ويغيب بين مرتفع سكة الحديد، والحقول ذات السنابل؛ التي لم تكتمل بعد.. فلم يستطع أن يتبين شيئاً.. لكن الأصوات تقترب، والصرخات تزداد تجسداً.. الخيانة. الآن يستطيع أن يلتقط منها بعض الكلمات؛ التي لا تكاد تقذف في الفضاء حتى تتلوها حفنة أخرى من زخات الرصاص: الديمقراطية.. الخيانة. الزعيم...

لم تمض سوى دقائق فحسب، حتى وجد نفسه يهتف: ها هم قادمون.. إنها تظاهرة إذاً.. إلى أين ترى هم ذاهبون؟! وخمن أن هدفهم ربما يكون مركز المدينة: باب الجديد، أو شارع الفاروق.. ولكنه، أحس برعدة خفيفة تسري في أوصاله، إذ لَمَعَت في ذهنه تحذيرات صهره عاصم، ألا يجوز أن؟ ولكنه حاول أن يستل الخاطرة من ذهنه، وأن يطوح بها بعيداً..

وخرجت سلمى لكي تسأله:

ـ ما هذا يا أبتاه؟!

ـ ادخلي، فإنه لا يحسن أن يروك هنا..

تشبثت بمكانها، وهمت بأن تسأله مرة أخرى، ولكنها ما لبثت أن تلقت الجواب بنفسها هذه المرة، فها هي طلائع التظاهرة تلوح على

بعد عدة أمتار، والصراخ يزداد سعاراً، وطلقات الرصاص لا تكف عن اختراق الطبقات القريبة من الفضاء.. وثمة كلمات مبحوحة ولكنها واضحة تماماً..

ـ الشيوعيّون..

قالت بصوت منخفض وهي تحس برجفة تتغلغل في شرايينها، وتصفعها بموجة من البرد القاسي..

ـ ادخلي.. فها هم على بعد خطوات..

لم تستجب له مرة أخرى، وتشبثت بمكانها وهي تطل؛ لكي ترى قبالتها حشوداً من الناس، مدنيين وعسكريين، يطوحون بالحبال، ويلوحون بالبنادق، والحراب، والعصي، والسكاكين..

وقال عبد الرحمن وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

ـ أخشى أن تصدق تحذيرات عاصم، فقد رآنا بعضهم ونحن نصلي الجمعة خلف هاشم عبد السلام..

فكأنها استمدت من اسم الرجل قوة ما، كانت تمتلكها قبل لحظات، وها هي ذي تستعيد توازنها، وتطرد الرعدة والبرد قبل أن يلفا كيانها تماماً..

ـ ولكن...

قاطعها أبوها:

ـ لست خائفاً، ولكنني أخشى أن..

لم يستطع أن يتم كلامه، فقد قطعته صرخة مبحوحة، لكنها حادة، موجعة، منذرة بشيء كسواد الليل..

ـ الخونة!!

نظر أمامه، فيما وراء السور الواطئ، وأزاح عن عينيه بصعوبة سحابة ضبابية كادت تحجب عنهما الرؤية.. ها هو ذا أحدهم.. شاب دون الثلاثين من عمره، ذو شعر خفيف، وجبهة ضيقة، وعينين لا يكاد المرء يعثر عليهما إلا بصعوبة، ورآه وهو يجمع بإصبعه قطرات العرق المتناثرة على الجبهة، ثم يرشها على الأرض، التفت إلى الحشد؛ الذي تتعالى صرخاته كأفاعٍ سوداء تتلوى في الفضاء، قبالته تماماً..

ـ لحظة واحدة أيها الرفاق.. فها هو ذا أحد أوكار الخيانة..

تعالت الصرخات مرة أخرى.. التمعت حراب.. وتلوّت حبال، واصطكت خناجر وسكاكين.. وأزَّ الرصاص مختنقاً مبحوحاً هو الآخر، كأصوات القادمين، مختلطاً بكلمات لا تكاد تسمع، ولكنها تضرب كالرصاص..

صرخ عبد الرحمن:

ـ ادخلي..

لم يكن يعرف أنها تركت ـ الآن ـ المكان منذ أكثر من دقيقة، والتفت؛ لكي يواجه الشاب ذا الجبهة الضيقة والعينين الصغيرتين، وصرخ ثانية:

ـ لسنا خونة، ولن أسمح لك بأن تقولها مرة أخرى.

رد يونس سعيد عتالة بصوت متكسر:

ومتآمرون. متآمرون..

وهمَّ جمع من المتظاهرين بالتقدم أكثر صوب الباب الخارجي، فأشار إليهم يونس أن يتريثوا قليلاً:

ـ مهلاً، فإن أوكار الخيانة لا تخلو من سلاح.. لا أريد أن أضحي بأي واحد منكم!

قال عبد الرحمن وهو في مكانه من الشرفة مكشوفاً أمام المتظاهرين:

ـ لسنا نحن الخونة على أية حال.. هنالك حكومة تقرر وتدين، ليست المسألة فوضى.

ضحك يونس وهو يربت على الحربة:

ـ الآن.. نحن الحكومة..

ثم ما لبث أن صرخ:

ـ كلنا فداء للزعيم.. نموت وتحيا الديمقراطية..

ردت عليه الحناجر المبحوحة بالكلمات نفسها.. وفكر عبد الرحمن.. لا بد من كسب الوقت ريثما أمسك بندقيتي..

تراجع قليلاً؛ لكي يكون أقرب إلى الباب المفضي إلى الصالة..

ـ لكم أن تتأكدوا، وستعرفون جيداً أننا لسنا خونة..

تقدم يونس خطوتين وهو يتساءل:

ـ فمن كان يصلي خلف هاشم عبد السلام قبل ثلاثة أيام؟

أجاب عبد الرحمن وهو يزحف بشكل غير ملحوظ صوب ثغرة الباب:

ـ وماذا في ذلك؟

قال يونس:

ـ هاشم خائن، وسوف يلقى جزاءه، ألا تدري أنه اشترك في الإعداد لمؤامرة الشواف، وساهم فيها؟

ـ ولكن. .

قاطعه يونس بصوت أقرب إلى الصراخ:

ـ لقد هاجمنا في خطبه بما فيه الكفاية. . كان يحرض علينا. .

ارتفع صراخ المتجمهرين خلفه كرة أخرى، وشقت كلمات قاسية طبقات الهواء؛ لكي تنقض على عبد الرحمن كالسكاكين. .

ونادى هذا بصوت مكتوم:

ـ سلمى. . البندقية في درج خزانتي، ائتني بها، وضعيها وراء الباب. .

وعاد يونس؛ لكي يهدئ الصراخ قليلاً، ويلتفت إلى عبد الرحمن:

ـ لست وحدك!

تساءل عبد الرحمن ودقات قلبه تتصدى كمطرقة تضرب في مكان بعيد:

ـ ماذا؟

قال يونس وهو يرسم على وجهه ابتسامة يصعب إدراكها:

ـ ابنتك!

صرخ عبد الرحمن دون إرادة منه:

ـ كف عن ذلك، فإن للنساء حرمة. .

قهقه يونس:

ـ حرمة؟ ومتآمرة. يا عبد الرحمن. . ومتآمرة. .

صرخ عبد الرحمن مرة أخرى:

ـ قلت لك كف عن هذا. .

لم يأبه يونس لتحذيره:

ـ لقد شوهدت هي الأخرى تصلي وراء هاشم، ولن يمضي ذلك دون حساب.

أجاب عبد الرحمن وهو يحس بشيء كنذير السوء..

ـ كثيرات غيرهن صلين وراء هاشم.

قال يونس وقد أصبح ـ الآن ـ لصق الباب الخارجي:

ـ كلهن سنحاسبهن، ولن يفلت من قبضتنا أحد..

وانفجرت الأصوات الصارخة مرة أخرى.. وتلوَّت الحبال.. وأزت زخات الرصاص.. وأحس عبد الرحمن بخطوات مسرعة تذرع الصالة، وبصوت ارتطام خفيف وراء الباب الموارب، وما لبث أن تحسس بيده اليسرى بندقيته القديمة، فأحس بشيء من الاطمئنان.. وهو يعرف جيداً أن ليس بمقدوره مجابهة خصمه، لكنه، سيعرف كيف يدافع عن كرامته وشرف ابنته.. ولن يكون بمستطاع الشيوعيين أن يصلوا إليهما أحياء..

وصرخ يونس:

ـ خير لك أن تفتح الباب.

تغافل عبد الرحمن عن طلبه، فأردف هذا وهو يضرب بقبضته الباب الحديدي:

ـ افتح.. فنحن مكلفون بتفتيش الدار.. ثم إن عليكما أن تُسلما نفسيكما.

تراجع عبد الرحمن خطوتين، وأصبح الآن يقف في فتحة الباب تماماً، ونظر بطرف عينه؛ لكي يتأكد من البندقية، وقال متحدياً:

ـ لن أفتح، فلسنا متآمرين. .

ـ إذا لم تفتح أنت، فسوف نعرف كيف نفتح نحن، ولسوف نقلب الدار على رأسيكما.

كان صبر المتظاهرين قد نفد، وهم منذ دقائق يتحفزون للانقضاض، فجاءت صرخة يونس وكأنها الإشارة، وخلال لحظات، تدفق الشيوعيون على الحديقة، مجتازين السور الواطئ بسهولة، وتقدم أحدهم؛ لكي يفتح الباب الحديدي.

ودخل يونس ومن ورائه موجة أخرى من المتظاهرين، وصاح بما تبقى له من قدرة صوتية:

ـ دعوا سلمى. . ، أحاسبها بنفسي. .

وللحظة، عادت لكي تتشكل في ذهنه الصورة؛ التي ارتسمت خطوطها هناك في المعتقل. وها هو ـ الآن ـ وجهاً لوجه أمام التجربة. . ولكن، كيف يشكم هؤلاء، وكيف يحظى ببغيته؟ على أية حال، فإنه قادر على تنفيذ جانبها الآخر، إن اقتضى الأمر. .

وأعاده إلى الواقع صوت رصاصة تئز قريباً منه، ثم ما تلبث أن تستقر في ذراع واحد من المهاجمين، كان يسعى لاقتحام الشرفة باتجاه الصالة. . وسمع الجريح وهو يصرخ:

ـ إنهم يقاوموننا. .

وما لبثت أن قطعتها صرخة يونس المبحوحة:

ـ اقتلوه. .

كان عبد الرحمن قد أوصد باب الصالة، وتحول إلى غرفة الضيوف؛ لكي يتخذ من نافذتها المطلة على الحديقة متراساً، وراح

يضرب.. تمكن من قتل اثنين من المهاجمين، وجرح آخر، ولكن صلية رصاص تمكنت من تفتيت قفل الباب الخشبي، فدفعه المتظاهرون بسهولة، واندفعوا إلى الداخل.. وما عتمت الصالة والممرات أن امتلأت بهم.. كانت صرخاتهم المتعطشة للدم تعول.. وزادهم تعطشاً، قتل وجرح عدد من رفاقهم..

وقبل أن يتاح لعبد الرحمن أن يلتفت؛ لكي يدافع عن نفسه، استقرت عدة طلقات في ظهره سقط على أثرها مضرجاً بدمائه..

وانتهز يونس فرصة انشغال بعض رفاقه بمهاجمة عبد الرحمن، وانهماك بعضهم الآخر بنهب الدار، فأخذ يسعى كالمجنون قافزاً من مكان إلى مكان، ومن غرفة إلى أخرى لكي يمسك بسلمى، وعندما انتهى به المطاف إلى المطبخ، رآها واقفة هناك وهي تمسك بسكين ذات نصل حاد.

صرخ:

- متآمرة..

وتجسد في ذهنه مرة أخرى الحلم؛ الذي نسجت خيوطه هناك..

قالت سلمى وهي تحكم قبضتها على السكين:

- لن تصل إلي وأنا حية..

تقدم يونس خطوات ومد يده بالحربة متوعداً.. لكنها تراجعت صوب الجدار وهي تحتمي بالسكين، وأراد يونس أن يخطو إلى الأمام؛ لكي يضيق الخناق عليها وهو يقول في نفسه: إنهم منهمكون الآن بسلب الأثاث، وقد يستغرق ذلك وقتاً، لكنه ما لبث أن فوجئ بزخة رصاص تخترق فضاء المطبخ، وبدفقة من رفاقه تنتشر في المكان وتحيط بسلمى..

ترنحت هذه للحظات، وكادت أن تسقط، لكنها تشبثت بالجدار، وقال يونس في نفسه: لا بأس، فثمة الجانب الآخر، ولم تنته مهمتي بعد. .

ـ إلي بحبل أيها الرفاق. .

نادى بصوت متيبس. .

طوحت الحبال في الهواء مرة أخرى، والتمعت الحراب والسكاكين، وأزت ثلاث طلقات من بندقية عتيقة، ووجد يونس بين يديه كومة من الحبال. وقال أحد الرفاق:

ـ دعوها، لقد قتلنا أباها. . وهذا يكفي، فهيا بنا لتصفية بقية الأوكار. .

صاح يونس:

ـ كلا، فإن العقاب لم ينته بعد. .

كان حينئذ قد فقد كل أبعاده وخصائصه البشرية، واستحال وحشاً كاسراً. . تمطت فتحتا منخريه على مداهما؛ لكي تشبعا من رائحة الدم. . وكان يعرف ذلك جيداً. . يعرف أنه لم تتبق له أية علاقة بالإنسان، وأنه ـ الآن ـ شيء آخر تماماً. . وأن عليه أن يندفع في الطريق إلى غايته. . فماذا بعد القتل؟ ماذا أشد فتكاً من القتل؟!

❁ ❁ ❁



٢٣

لم يتوقف لكي يجيب على السؤال، ولكنه انقض بالحربة على فريسته، فوجه إليها ضربة قاسية على ذراعها الأيمن جعلت يدها تتراخى

فتسقط السكين. . ولم تستطع أن تتحمل الألم، فما هي إلا لحظات، حتى انزلقت على الجدار لكي ما تلبث أن تستقر على الأرض تكاد تفقد قدرتها على الوعي. . بينما كان ينبوع الدم قد بدأ ينزف من الذراع. .

وتناول يونس حبلاً غليظاً، ولوى معصميها وهو يقربهما من بعضهما، ثم ما لبث أن أحكم وثاقهما بطرف الحبل، وتأكد ـ أكثر من مرة ـ من إحكام الشد، قبل أن ينهض ثانية وهو ينفض يديه ويرتعد. .

كان يغمره إحساس يتناوح فيه كضربات الأمواج العاتية، الغبطة، والعنف، والحقد، والتشفي، والانتصار. . ونادى كالمخمور:

ـ اسحلوها. . وراح يقهقه والرذاذ يتطاير من فمه، بينما الجبهة الضيقة تستقبل زخة أخرى من زخات العرق الغزير. .

انقض عدد من رفاقه؛ لكي يمسكوا بطرف الحبل، وكأنهم كانوا ينتظرون الإشارة، وأحست سلمى بعذاب العالم ينقض عليها دفعة واحدة وهي تكافح؛ لكي تظل في مكانها، لكنها كانت تحاول المستحيل، فما هي إلا لحظات، حتى أرغمتها شدة عنيفة من الحبل؛ الذي يمسك بمعصميها جيداً، على أن تغادر مكانها عند أسفل الجدار، وعادت لكي تكافح ـ بصعوبة ـ تفوق طاقتها؛ لكي تمضي مع الشد وهي لاتزال قاعدة، ولكن شدة أخرى عنيفة من الحبل، جعلت رأسها يهوي إلى الأرض، فيرتطم بعنف، في نفس المكان؛ الذي اعتادت أن تقف فيه لكي تغسل صحون الطعام، وانطلقت منها آهة طويلة، مكتومة، مترعة بالعذاب،على غير ما إرادة منها. .

وكانت لا تزال تملك شيئاً من الوعي، وجسدها يمضي لكي يجتاز باب المطبخ صوب الصالة الداخلية. . فتحت عينيها للحظات، فلم

تستطع أن تميز المكان جيداً، وقالت في نفسها : لماذا هو خال من أي شيء؟ أين ذهبت المقاعد الممتدة، والوسائد، والبسط، والسجاد؟ . . ولمحت أشباحاً تركض هنا وهناك، تحمل أشياء ثقيلة، وتهرع مغادرة الدار. . . وما لبثت أن أغمضت عينيها، وجسدها يجتاز باب الصالة باتجاه الشرفة. . . وتذكرت في طبقة ما من وعيها البعيد، أن ثمة عدداً من درج السلم يفصل بين الشرفة وبين الشارع القريب، صرخت بصوت مكتوم لم يكد أحد يسمعه، وما لبث أن تبدد في دوامة الصراخ. .

كان يونس يتقافز كالمجنون، وهو يدفع جموع المشاهدين ذات اليمين وذات الشمال؛ لكي يفسح مكاناً للجسد المنزلق على الأرض، تشده أيدٍ تعرف كيف تحكم قبضتها على الحبل الغليظ، وكيف تمضي بسلمى في رحلة عذاب ما عرفها إنسان في هذا العالم. .

وأطلقت سلمى استغاثة حادة، متضرعة، وهي توشك أن تبلغ حافة الدرج؛ الذي يفضي إلى الحديقة، وما لبثت أن أحست برأسها يتدحرج هناك. . وتمنت لو أنه ينفصل عن جسدها وهي تتلقى عنف الضربات كمطرقة هائلة لا تستطيع اتقاءها، وتمنت لو أن قوة ما تجعلها تغيب عن الدنيا ولو للحظات على الأقل، عبر اجتياز آلام التدحرج القاسي على الدرج الذي لا يرحم. . تمنت لو يغمى عليها. . لو تفقد وعيها. . لو تموت. . وهي مستعدة ـ بعدها ـ لاستقبال الحياة كرة أخرى إذا ما أتيح لها فقط أن تبلغ الشارع لكي يرتاح رأسها وجسدها على أسفلته الأملس. .

وأخذ الدم ينبجس في رأسها هنا وهناك، بينما الكدمات الزرق تبرز ـ بين لحظة وأخرى ـ لكي ما تلبث أن تنتشر على ذراعيها وقدميها. .

اجتازوا الباب الخارجي في لحظات كالدهر.. وها هي تستقبل ما تتمناه بعد إذ تلقت آخر مطرقة عند حافة الرصيف: أسفلت شارع الغزلاني الأسود ذا اللمسات الناعمة، الحنونة، فما هي إلا لحظات، حتى دثرها الإغماء بذراعيه الحانيتين، فأنقذها مما هو أشد هولاً: الرداء الذي أخذ يتمزق شيئاً فشيئاً وهو يكافح، مس الأرض، فتنسل خيوطه واحداً إثر الآخر..

وصاح يونس:

ـ رفاق.. أعطوا الحبل لغيركم، فقد بذلتم من الجهد ما فيه الكفاية..

وسرعان ما تبرع حشد من المتظاهرين، كل يريد أن ينال شرف الإمساك بطرف من الحبل، وتساءل أحدهم:

ـ إلى أين؟

أجاب يونس وهو يشير بيده شمالاً:

ـ من هنا، عبر شوارع البلد الرئيسية، لكي نلقن أعداء الثورة درساً قاسياً.. دعوا أكبر عدد من الناس يرون بأعينهم نهاية المتآمرين السوداء..

تفجرت الصرخات مرة أخرى:

ـ هذا مصير الخونة.

نادى بعضهم، فرد آخرون وهم يتقافزن ويرقصون على طرفي الجسد المسحول؛ الذي ينبجس منه الدم، وتتكاثر الكدمات.

ـ «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة».

وبين لحظة وأخرى، كانت الحبال تتلوى في الفضاء، والطلقات تئز مكتومة، لكي ما تلبث أن تغيب تاركة ذيولاً من الدخان الأبيض، الممتزج برائحة البارود.

كان يونس يغذ خطاه بموازاة سلمى، ثم ما يلبث أن يهرع لكي يكون في المقدمة.. وما هي إلا دقائق، حتى يتراجع لكي يوازي الجسد مرة أخرى..

وكانت حشود الناس تتكاثر؛ لكي تعاين المشهد المتفرد.. وبالمقابل، فإن العديد ممن أطلوا عبر جدار المتظاهرين، ورأوا الجثة؛ التي أخذت تعاني من التمزق.. أحسوا بصدمة قاسية، ولم يقدروا على مواصلة الرؤية، فآثروا الانسحاب، وابتعدوا عن المشهد القاسي؛ الذي لم تألفه عيونهم البتة.

وعند دورة باب الجديد، حيث كان عاصم قد وقف قبل يومين فحسب ينظر إلى التظاهرة الحاشدة دون أن يبيح لنفسه المشاركة فيها.. نظر يونس، فرأى جسد سلمى يختلج ويخفق مرتين، ثم ما يلبث أن يستسلم للسكون..

ها هي ذي تموت.. قال في نفسه وهو يدفع بسبابته قطرات العرق على جبهته الضيقة، ثم يرشها على جسد سلمى هذه المرة.. ونادى:

ـ عودوا بها أيها الرفاق عبر شارع الغزلاني نفسه، فهذا يكفي..

انعطفت التظاهرة حول دورة باب الجديد، وما لبثت أن استأنفت طريق العودة، وأحس عدد غير قليل من المتظاهرين بالإعياء، فآثروا الانسحاب، بينما واصل الآخرون انسيابهم على الشارع، صامتين هذه المرة، حيث لم تبق لهم أية قدرة على مواصلة الصراخ.

كانت الشمس قد أوشكت أن تغيب، والظلال السوداء تمد أجنحتها المثقلة بالاكتئاب على الأماكن والناس والأشياء.. وكان شارع الغزلاني العتيق أسرعها في تلقي هذه الظلال واحتضانها.

وكانت بعض النسوة ـ على طول الطريق ـ يحاولن أن يلقين نظرة على ما يشهده الشارع من نوافذ دورهن وأبوابهن، ولكنهن ما إن يعرفن، حتى يؤثرن الانسحاب، ويقفلن النوافذ والأبواب، وعيونهن تسح بالدموع..

لم تنته المهمة بعد.. قال يونس في نفسه.. ولا يزال المشهد ناقصاً، ولسوف أعرف كيف أُتِمَّهُ..

تقدم منه أحد الرفاق وسأله:

ألا يكفي هذا يا يونس؟ لقد نال منا التعب، وها إن النهار أوشك أن ينقضي..

أجاب يونس وهو يحدق جنوباً في مكان ما بجوار المعسكر؛ الذي تجرع فيه الخوف، والامتهان يومين بلياليهما:

ـ دقائق وسوف تعرفون..

ـ ولكن الظلام أوشك أن يطبق..

ـ قليلاً من الصبر، وترجعون إلى دوركم..

كانت المسيرة المرهقة قد حاذت دار عبد الرحمن الشيخ داود مرة أخرى، وكان يبدو الآن مثقلاً بالحزن والاكتئاب والوحشة، حيث لا يزال جسد عبد الرحمن ملقى هناك. وغذ يونس خطاه مسرعاً، لكي يجتاز المسيرة ثم يتقدمها، منفصلاً عنها بعض الشيء، وما لبث أن وقف عند أحد أعمدة الكهرباء الممتدة على الرصيف بمحاذاة الشارع، تفصل أحدهما عن الآخر عدة أمتار..

حدق فيه جيداً، ثم ما لبث أن أشاح بوجهه صوب المعسكر القريب؛ الذي تمتد ثكناته على يمين الشارع، وصاح في موجة حماس مفاجئ:

ـ هنا أيها الرفاق..

نظر بعضهم إلى بعض دون أن يفقهوا شيئاً..

وعاد يونس؛ لكي يقول وهو يضرب على العمود الحديدي بيده المعروقة:

ـ هنا سنعلق الجسد.. إنه مكان مناسب، أليس كذلك؟

وصرخ وهو يتلقّى موجة حماس أخرى:

ـ لنتعاون جميعاً..

وامتدت الأيدي؛ لكي تجر جسد سلمى الممزق إلى حافة الرصيف، وتبذل جهداً صعباً في محاولة رفعه ليكون بموازاة العمود..

ـ ليس هذا ضرورياً أيها الرفيق!

قال أحدهم وهو يترك المهمة متراجعاً إلى الوراء..

ـ بل ضروري بكل تأكيد.. هيا..

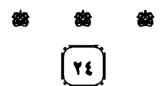
وتقدم بنفسه؛ لكي يعينهم على المهمة.. وما إن أصبحت سلمى بموازاة العمود، حتى صاح يونس مرة أخرى:

ـ لنرفعها قليلاً أيها الرفاق.. لنعلقها.. قليلاً من المشقة، وسوف ينتهي كل شيء!

عادوا لكي يواصلوا المهمة.. وما هي إلا دقائق، حتى كان جسد سلمى يتدلى من مكان ما عند منتصف العمود، مشدوداً بالحبل نفسه؛ الذي رحل بها عبر شارع الغزلاني المتعرج الطويل..

وأحس يونس بارتياح عميق، يغمره وهو يتراجع خطوات، لكي يعاين الجسد للمرة الأخيرة. .

فها هنا. . قريباً من المعسكر، حيث اعتقل، وعانى من الخوف والمذلة، ها هنا على ناصية الشارع المفضي إلى بغداد، حيث يتألق مجد الزعيم. . ها هنا على بعد عشرات الأمتار من البيت؛ الذي كان عاصم يغازلها فيه. . من تل الذهب؛ الذي كانت تتعاشق ـ يوماً ـ مع زهوره، وخضرته، ودغله البري. . ها هنا يدرك يونس كم أنه أحسن صنعاً في اختيار عمود كهربائي مهجور، ومغطى بالصدأ؛ لكي يشنق عليه جسد سلمى. . فيطفئ واحدة من جمرات الحقد؛ التي كانت تأكل قلبه منذ زمن بعيد!



٢٤

مد حنا جرجس نظره عبر نافذة غرفته العليا المطلة على شارع نينوى. . كانت الشمس تنغرز لحينئذ، في مكان ما، ينكشف بوضوح عند النهاية الغربية للشارع. . وما هي لحظات حتى غابت تماماً. . ولكن شعاعها كان يكافح على مساحة واسعة من الشفق، فيصبغ الحدود الدنيا للسماء بالدم والأرجوان. .

ورغم كل شيء، كان حنا يحس بقبضة عاتية تعتصر قلبه، وكان الاكتئاب يصفعه بغير ما رحمة، وكان يعزي نفسه: لقد انتصرنا، وهذا كل ما كنت أتمناه. .

وأجفل قليلاً وهو يتذكر. . ها قد حان الوقت يا حنا لكي تهرع إلى الشارع، فتشارك رفاقك في تعزيز كيان الجمهورية، والدفاع عن

الزعيم، بمواجهة بقايا الجيوب المتآمرة التي لا تزال تقاوم؛ إذ ها هي زخات الرصاص تسمع بين الحين والحين.. وما لبث الإجفال أن تحول إلى رعدة نشرت في جسده قشعريرة، كقشعريرة الحمى الباردة، وهو يتذكر هاشم عبد السلام، لقد آن الأوان يا هاشم، لكنه ما لبث أن انكمش قليلاً وهو يتذكر أنه هَمَّ أكثر من مرة بمغادرة الدار، بعد أن اطمأن على أهله وأطفاله و ارتاح، وتناول شيئاً من الطعام؛ لكي ينزل إلى الشارع، ويكون على مقربة من الجماهير؛ التي تصنع التاريخ، إذ ما الفرق بينه وبينهم؟! إن يونس يتوحد الآن أكثر منه، فيحقق على أرضية الموصل نفسها ما كان يحلم به، ومن يدري؟ فلعله يقود تظاهرة ما يلاحق بها جيوب المتآمرين.. لماذا لا يتوحد هو الآخر؟

إن رفاقه كانوا يرمونه بالجبن والانعزالية، وكان بعضهم يتجاوز هذه التهمة إلى ما هو أمر وأنكى... إنه يكتب شيئاً لا يفعله، ولا يمارسه!

ونهض قائماً ـ وملامح الغضب تغطي وجهه ـ وهو يدمدم:

ـ لسوف تعرفون قريباً كيف أمارس كلماتي، وكيف أعيش في أحرفها.. سوف أجعلها تتجسد على أسفلت الشارع كما تجسدت كلمة الله!

وكأنه تذكر شيئاً غاب عن ذهنه طويلاً، فعاد لكي يتساءل: الله؟! أتُراك لا تزال متشبثاً به؟! وما لبث أن أجاب وهو يحس باقتناع مطمئن، يتجاوز حدود مملكة العقل.. ولم لا؟ سأكافح من أجل الاحتفاظ بالكلمة، والإيمان به.. سأدافع عنهما.. ولن يكون ذلك تناقضاً ـ بحال من الأحوال ـ مع انتمائي الجديد.. إنهم ـ على أية حال ـ لا يحاربون الله... أو الكلمة.. أو الإيمان.. ولكنهم يلاحقون أولئك الذين يجعلون الدين أداة لتحقيق أهدافهم السياسية..

وقال مخاطباً نفسه: اليوم ـ وبكل تأكيد ـ تستطيع أن تجعل كفاحك يتوحد، فإزاء الخطر التاريخي؛ الذي يجثم على الأنفاس عبر دهور يصعب حسابها، يمكن أن يصير المرء نصرانياً، أو شيوعياً في الوقت نفسه.. لقد آن الأوان..

وسمع زوجته تناديه من الطابق الأرضي، فانفصل عن النافذة وهو يطمئن نفسه: إذا فاتتك الفرصة، فإن غداً ليس ببعيد، ولسوف تعرف كيف تجعل أحلامك تتخلق، وتصير وقائع وشخوصاً وأحداثاً..

ـ ها أنا ذا قادم..

واجتاز الدرج؛ لكي ما يلبث أن يدلف إلى غرفة الجلوس؛ التي تنخفض بدرجتين عن مستوى الفناء.. استلقى هناك على أريكة ذات مخمل أزرق، وهو يتمطى:

ـ آه.. لشد ما عذبني الحنين لجلساتنا البيتية هذه، وأنا أعاني الوحشة هناك..

قاطعته زوجته:

ـ ما كنا نصدق أنك ستعود..

ـ وأنا كذلك ما صدقت للحظة!

سألته:

ـ ولكن، كيف تفسر ذلك؟

أجاب وهو يتمدد على الأريكة:

ـ إنهم لا يعرفون الرحمة على أية حال، فليس ثمة ما يفسر تصرفهم، سوى خشيتهم من غضب الزعيم.. من رد فعله..

لم تقتنع زوجته، لكنها تظاهرت بتصديقه.

وواصل حنا:

ـ على أية حال، فإنهم لم ينجوا من الغضب، وسوف يعرف الناس غداً، أن التآمر لا يمكن أن يمضي بسلام..

وقالت زوجته وهي تتوغل في الغرفة أكثر؛ لكي ما تلبث أن تجلس على حافة أريكة مجاورة:

ـ لم أستطع أن آكل لقمة واحدة.. تخيلتك هناك، وأنت تعزف عن الطعام، إنني أعرفك جيداً..

ـ ولكنني، اضطررت أخيراً إلى أن آكل!

ـ هكذا؟!

ـ الضرورات تبيح المحظورات..

ـ لقد أعددت لك اليوم وجبتك المفضلة..

تساءل حنا وهو يزدرد ريقه:

ـ حامض الكبة؟

ـ طبعاً، ولكنني لن أجازف بتقديمها قبل أن أتأكد من أنك غدوت جائعاً بما فيه الكفاية..

ـ ولكن لم يمضِ على غدائي سوى أقل من ساعتين..

ـ عندما تشم رائحتها، وترى القرع الجبلي، والشلغم، يتشربان السماق، فإن شهيتك ستستيقظ ثانية..

قال حنا وهو يعتدل:

ـ بكل تأكيد، ولكني أحس بجوع أشد إلى النوم.. ليلتان كاملتان وأنا لا أعرف له طعماً..

نهضت الزوجة وهي تقول:

ـ ستنام يا حنا.. وستشبع نوماً!

غادرت الغرفة، بينما كان هو منهمكاً في مسح عدستي نظارته بطرف بيجامته المقلمة بالأزرق والأحمر، وعاد لكي يثبتها من جديد على أرنبة أنفه المقوس.

كان يعذبه إحساس مرهف، بأن الوقت ربما يكون قد فاته، وأن رفاقه قد فعلوا الكثير، بينما هو مرتاح في بيته.. وأنه لم يحسن صنعاً في عدم الاستجابة لفكرة يونس عتالة، بالانطلاق على رأس المتظاهرين؛ لملاحقة الأعداء..

ماذا تراهم فعلوا عبر الساعتين الأخيرتين، وأنت قاعد هنا تحكي مع زوجتك عن النوم والطعام والأطفال؟

تناهت إلى سمعه زخات من الرصاص قادمة من أكثر من مكان من الموصل.. ومرَّ إلى الغرفة، خائفاً، ابنه الأصغر سمير.. آخر العنقود كما كان يسميه، لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره.. أطلق صرخة صبيانية، وهرع قافزاً؛ لكي يستقر على ركبة أبيه..

ربت هذا على خديه الممتلئين، وراح يدعكهما بحنان،وهو يقول في نفسه: ماذا لو لم أعد إليه، وحاول أن يطرد الخاطر الحزين، لكنه ألح عليه، فوجد نفسه ينساق ثانية إلى تيار الرثاء؛ الذي كان يلجأ إليه بين الحين والحين.. فماذا لو قتلت هناك، وظل سمير ينادي عليك، ومن ثم، من يربت على خديه ويدعكهما؟!

انزلق الصبي على الأرض، وركض صوب الباب وهو يحس بفرح غامر كمن عثر على شيء ما افتقده طويلاً، وها هو ذا يجده وجهاً لوجه، ويطمئن عليه..

وما لبثت أزّة من الرصاص، اخترقت الهواء في مكان قريب أن ردته ثانية إلى اللحظة التي تعذبه.. ها هي ذي إذاً.. ولن يعدو الأمر إحدى اثنتين: خونة يواصلون تآمرهم ورغبتهم في القتل، أو رفاق يمشطون أزقة المدينة وأحياءها من جيوب المتآمرين.. وصفعه الإحساس بالذنب مرة أخرى، وأنت هنا قاعد في بيتك تنتظر وجبة عشاء لذيذ، ونوماً عميقاً..

سيعرف بعضهم بالتأكيد.. يونس سيعرف، ومن يدري؟ فقد يسخر مني في مقهى المكاوي.. إنه على جهله وغبائه، يفعل، وأنت على علمك وذكائك تختبئ قريباً من زوجتك! وحاول أن يعزّي نفسه مرة أخرى: سأعرف غداً كيف سيكون التعويض، وسوف يراني الرفاق بكل تأكيد.. ولكن..

وانتصب أمامه سؤال ما، لم يكن مجرد حالة استفزاز ذهني تبحث عن جواب مقنع لكي تعود إلى توازنها.. ولكنه انقض عليه، من الخارج، هذه المرة منفصلاً عن ذهنه بالكلية، ومتحولاً ـ شيئاً بعد شيء ـ من هيوليته وشبحيته، إلى حالة متجسدة راحت تزداد تماسكاً وتكاثفاً حتى غدت منظوراً ذا طول وعرض وعمق وارتفاع، تقف قبالته تماماً، وتتحداه..

هل تستطيع أن تقتل؟ ومن سيكون القتيل؟

قال وهو يرتجف ويحس بأن نور المصباح قد أخذ يضعف ويتضاءل، حتى يبلغ درجة الصفر، فيسود الغرفة ظلام دامس..

ـ سوف أقتل بكل تأكيد..

ـ أواثق أنت من ذلك؟

أجاب وهو لا يزال يرتعد:

ـ ليس يونس بأقدر مني..

ـ هكذا؟!

ـ لقد آن الأوان لكي تتحقق كلماتي..

ـ ولكنك لم تفعل شيئاً، ورفاقك يطاردون المتآمرين ويقتلونهم..

ـ سأفعل.. سأفعل..

ـ ولكنك لم تجب على السؤال..

صفعته رعدة أخرى.

ـ أي سؤال؟

ـ من سيكون القتيل؟

وتذكر حنا، وصرخ، كمن يعثر فجأة على جواب مقنع للسؤال المحير:

ـ ليس غيره، بكل تأكيد.. لقد كتب علينا أن نتقابل.. وأن يتحدى أحدنا الآخر، لقد استفزني بما فيه الكفاية، وقد آن الأوان..

ـ ولكن المسألة ليست شخصية على أية حال.. أجاب متشبثاً بموقفه.

ـ بكل تأكيد، فهو لم يتحدني وحدي، ولكنه تحدى الجمهورية، والزعيم، والثورة، ولم يدع فرصة تفلت دون أن يصب لعناته على الرفاق.. لقد كان يستغل كونه إماماً أسوأ استغلال.. و..

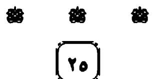
فرك عينيه جيداً وهو ينظر قبالته، فلا يجد أي شيء.. وحدق في جنبات الغرفة فوجدها ملأى بالضوء، رفع عينيه إلى أعلى، فوجد المصباح مشتعلاً بالقوة نفسها التي كان عليها..

كان يحس بإعياء شديد، وخشي أن يقع فريسة لهوس الحمى، ولكنه شجع نفسه قائلاً: سأخرج غداً حتى لو لم تقوَ قدماي على المسير.. لا بد من أن أمسك بالفرصة قبل أن تضيع مني إلى الأبد..

ومن أجل أن يهرب من وساوسه، نهض قائماً، واجتاز الغرفة المفروشة بسجاد أنيق، وأطل على الفناء منادياً زوجته:

ـ أعتقد أن الوقت قد حان لتناول الطعام!

❀ ❀ ❀



انطلق حنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وهو يغذ خطاه مجتازاً شارع نينوى باتجاه طرفه الشرقي..

كان يسأل كل من يمر به:

ـ ألم تقع عينك على تظاهرة؟ على تجمّع ما، يسعى لملاحقة أعداء الجمهورية، وتضييق الخناق عليهم؟

وكان أكثر من واحد يجيبه:

ـ بكل تأكيد، هناك في شارع النبي جرجيس، أو في شارع الفاروق.. يمكنك اللحاق بهم..

ويعود حنا لكي يسأل بلهفة:

ـ ماذا يفعلون؟

ويجيبه أكثر من واحد:

ـ يلاحقون الخونة، فيقتلونهم أو يسحلونهم.

ـ يسحلونهم؟

ـ يبدو أنك لم ترَ شيئاً بعد!

وما يلبث أن يستجمع شجاعته، أو يستفزها بعبارة أخرى، ويسأل وهو يزدرد ريقه:

ـ و هاشم عبد السلام؟

ـ من؟

ـ هاشم عبد السلام!

أجاب أحدهم بأنه قتل يوم أمس، ولكن أكثر من واحد، أكدوا أنه لم يقتل بعد، وأنه سيقدم للمحاكمة هذا اليوم كي ينال جزاءه..

ـ ولكن، هل ألقي القبض عليه؟

صرخ أحدهم:

ـ وهل يقدر أحد اليوم على الإفلات من قبضة الرفاق؟

ـ لكنه لم يقتل، أليس كذلك؟

وأحس بشيء من الارتياح، وقال في نفسه: إذاً، فالفرصة لا تزال قائمة، وسأعرف كيف أنفذ فيه حكم الإعدام.. لقد استفزني بما فيه الكفاية، ولن تشفع له عندي جلساتنا في مطبعة الأنوار..

وعاد لكي يجتاز الشارع الطويل وهو يتقافز بجسمه النحيل وخطواته الواسعة هنا وهناك، وما أن يجد نفسه قبالة حشد من الناس، حتى يراها فرصة طيبة للتأكد من أن خصمه قد ألقي القبض عليه، وأنه ـ في الوقت نفسه ـ لا يزال على قيد الحياة..

وماذا يهم؟ قال في نفسه، وهو ينعطف يميناً في شارع الثورة المتفرّع عن نينوى.. إذا صدق ما قاله أحدهم من أنه قتل فعلاً، فهناك عشرات غيره يمكن أن تنال شرف إنزال العقوبة بهم.. لكنه وجد نفسه دونما إرادة

منه، يعض على شفته السفلى. . ولكنه شيء آخر تماماً، بالنسبة لي على الأقل، وقتله على يدي، يعني شيئاً كثيراً. . إن ثمة أصواتاً كبيرة يصعب حصرها تناديني من الأعماق ولن تسكت ـ بالتأكيد ـ إن لم أحقق ما تريده، وأنا أعرف جيداً ما تريده، وعندها، ستسكت الأصوات وسأرتاح. . نعم. . سأرتاح. . ولن يكون بمقدور يونس نفسه أن يقول شيئاً. .

وشهد عدداً من الناس يهرعون، قادمين من الأزقة الفرعية والحارات، صوب مركز الشرطة العام؛ الذي يقبع في النهاية الجنوبية لشارع الثورة، ويطل عليه بأبنيته العتيقة المصبوغة بالأبيض والأخضر.

كان يعرف جيداً ما يعنيه ذلك. . إنهم متجهون صوب محكمة الرفاق التي يرأسها عبد الله الجزار، مسؤول التنظيم الشيوعي، والتي بدأت بعقد جلساتها هناك، لقد تأكد لديه ذلك مما كان يسمعه من المارة. . كما تأكد لديه أن مجموعة من المتآمرين تقف هناك بانتظار مصيرها. .

ـ ألا يجوز أن يكون هاشم عبد السلام بينهم؟

سأل جندياً يمرُّ قريباً منه، وهو يلوح ببندقيته، فلم يرد عليه، وقال حنا مطمئناً نفسه: لا بد أن يكون هناك، وإلا، فأين يكون!؟

ورغم أنه كان يشهد بأم عينه جماعات من الناس تتدفق من هنا وهناك صوب مركز الشرطة، فإنه أحس أن المدينة تعاني فراغاً مخيفاً، وأن كل هؤلاء الذين يتخبطون في شوارعها، ليسوا من أهلها، وإن أهلها الحقيقيين مختفون عن الأنظار. . غابوا في أماكن أخرى. . إنه يعرف شارع الثورة جيداً. ففي إحدى أزقته، تقبع مطبعة الأنوار؛ التي كان يلتقي فيها بعدد من مثقفي المدينة، وقريباً منها، يمتد شارع النجفي الضيق الذي

تطل عليه من الجانبين المكتبات الصغيرة المتراصة؛ التي كان يجد متعته البالغة، وهو يقف دقائق عند بواباتها يشتري كتاباً، أو يكتفي بتصفحه بعد إذ يلمح سعره العالي على جانب من الغلاف.. إنه يعرف شارع الثورة جيداً.. كان مليئاً بالناس،، حيوياً، سعيداً..

أما الآن.. فإنه يبدو ـ رغم دفقات الناس التي تجتاحه ـ خاوياً، مهموماً، حزيناً.. أين أهل المدينة الذين أحبهم الشارع وأحبوه؟ أين ذهبوا؟ وهو يجتاز الرصيف؛ الذي تطل عليه فوهة زقاق المطبعة، تذكر هاشم مرة أخرى، وقال في نفسه: ها هنا تحداني، وهو لا يدري أنني قادر على الاستجابة.. أكثر منه بكثير.. ولسوف يعرف قريباً..

عبر الشارع عند دورة باب البريد القريبة من مركز الشرطة.. ها هو ذا إذاً المركز العتيق؛ الذي كانت الملكية تُهيّأ عنده أيام الملك.. لكي تعرب عن سخطها وغضبها ضد الشرطة حماة الملكية.. الآن، يتحول إلى محكمة يمارس فيها الشعب حقه في مجابهة خصوم الثورة.

وخفق قلبه وهو يتذكر أنه لم يعد يفصله عن هدفه سوى حيز ضيق في الزمان والمكان.. وإنه سيمارس حقه ـ هو الآخر ـ قبالة واحد من هؤلاء، ولكن، وزنه لن يكون كوزنهم.. وأحس بشيء من الفخر وهو يتصور نفسه ينقض على فريسته؛ لكي يسوقها إلى حتفها وسط هتاف الجماهير وتصفيقها.. ومن يدري، فلعلَّهُ يقود بعدها تظاهرة كبيرة كتلك؛ التي كان يونس يتهيأ لقيادتها مساء أمس، وينطلق بها في شوارع المدينة، عندها، سيقول كل ما يعتمل في نفسه، وسوف تزداد ثقته بما يقول، لأنه عرف كيف يمارس الفعل،والتحقق على أرضية الواقع المشهود..

ها هو ذا إذاً المركز العتيق، ورفع نظره قليلاً، الطابقان اللذان يطلان على الشارع بلونهما الأبدي، الأبيض والأخضر.. الرواق الأمامي الضيق الذي يفصله عن الرصيف سياج حديدي ذو رؤوس مدببة.. الباب الوسطي الكبير، وغرفتا الحراسة الجانبيتان، الباحة الداخلية وأبواب الغرف العتيقة؛ التي تنفتح عليها.. ثم الباب الخلفي المفضي إلى الساحة المكشوفة؛ التي تمتد على مدى البصر، يحيط بها سور حجري متآكل، لا يكاد يقدر على تحصينها..

ووجد حشداً من المتجمهرين يقفون متدافعين على الرصيف.. وكان بعضهم يسعى للاقتراب أكثر من السياج؛ الذي يمتد بموازاة الرواق الأرضي الضيق.. وإذ استطاع عدد منهم اجتياز الباب الحديدي المشرع إلى داخل الرواق، اكتفى البعض الآخر بأن يقف ممسكاً بالسياج نفسه، ماداً عنقه باتجاه غرفة الحراسة اليمنى..

وسمع بعضهم يتهامس:

ـ هنا، في هذه الغرفة تنعقد المحكمة..

ووجد نفسه يصرخ دون إرادة منه:

ـ أين هاشم عبد السلام؟

التفتت إليه عشرات الوجوه المتشبثة بالسياج، وكأنه أخرجها بصرخته عن استغراقها في نقطة ما في الرواق بين مدخل السياج وباب الغرفة اليمنى..

وأحس بشيء من الخجل الممتزج بالخوف، وطغى عليه شعور قاس بأنه غدا مكشوفاً تماماً قبالتهم، فأراد أن يغطي نفسه، ولم يجد بُداً من أن يصرخ مرة أخرى:

ـ أريد أن أصفي حسابي معه!

ومد يده بعصبية إلى الجيب الخلفي لبنطاله، وأخرج مسدساً عتيقاً، ولوح به بيد مرتجفة وهو يصرخ:

ـ لن يفلت مني على أية حال..

كانت الوجوه الغريبة؛ التي لا يعرف أحداً منها على الإطلاق، تجد نفسها واقعة في إسار استغراق جديد.. لعله الإعياء.. لعله القرف، لعله الشبع من الدم إلى حد التخمة، ما جعلهم يقفون هناك كالمشدوهين عند السياج.. يتحركون ببطء.. ويديرون وجوههم ببطء.. وينظرون إلى الآخرين ببطء.. لكنه البطء الذي يخيف، ويستفز، ويدفع الإنسان ـ رغماً عنه ـ إلى اتخاذ ردود أفعال، قد لا تكون مبررة على الإطلاق..

ووجد نفسه في وضع صعب أشبه بالكابوس.. إن أحداً لا يرد عليه.. بل ـ ربما ـ إن أحداً لم يسمعه أبداً.. إذاً أين ذهبت صرخاته؟ أتراه صرخ أساساً؟

ومن أجل أن يتجاوز الوضع الصعب.. من أجل أن يتأكد أنه يتحرك في الواقع، وأنه ليس أسير حلم عبثي، أو كابوس مخيف، استجمع كل ما لديه من شجاعة، وفرش ذراعيه؛ لكي يدفع بهما حشود الناس الملتصقة بالسياج، والمكتومة عند المدخل، دون أن ينسى لحظة أن يشد أكثر على مسدسه، كيلا يفلت منه، وكي يجعله أقدر على التأثير وجذب الانتباه..

وبصعوبة بالغة، اجتاز المدخل.. ليس سوى دقيقة أو جزء من دقيقة، ولكنه بالنسبة إليه ـ على الأقل ـ كان زمناً لا نهائياً.. وللحظات، حدثته نفسه بالتراجع والهروب.. وحلم.. بأنه يبعد عن

هذه الكوم البشرية اللزجة.. ويبعد.. وبأنَّه يعود أدراجه عبر شارع الثورة، لكي ينطلق بعدها، حراً صوب بيته، متخففاً من النظرات الفارغة؛ التي لم تكن تعني شيئاً على الإطلاق..

آه لو كنت في بيتي الآن!! ولكنه أفاق على شيء من الألم ينغرز في جنبه وأضلاعه.. إنه ضغط هذه الكوم المتراصة.. قال في نفسه، واستفز شجاعته مرة أخرى:

ـ أفسحوا لي الطريق..

صرخ بصوت مبحوح:

ـ فإني مكلف بمهمة..

تراجع بعضهم قليلاً، وانفتح أمامه على مدى متر أو مترين شريط ضيق يتلوى قريباً من باب الغرفة اليمنى.. ولأول مرة، بدأت الأصوات تطرق سمعه من الداخل، لكنه لم يستطع أن يتبينها رغم الجهد البالغ الذي كان يبذله لالتقاطها وفك رموزها.. ثمة صوت واحد فقط خمن ـ لدهشته ـ أن يكون ليونس سعيد! وقال في نفسه كالمأخوذ: إذاً فأنت هنا؟!

وهو يكافح لكي يعرف ما يجري هناك فوجئ بثلاث رصاصات تنطلق من مكان ما في الغرفة، تخترق الهواء بحدة قاسية، ثم تصمت منغرسة في شيء لين.. جسد آدمي على الأغلب..

ووجد نفسه يقف للحظات في نقطة التمزق، بين التوغل أكثر صوب الغرفة، وبين التراجع والفرار.. وهو يتمزق بعنف نسي مهمته.. تلاشى ـ بالكلية ـ الهدف الذي تمركز في ذهنه عبر اليومين الأخيرين، وتحول بمرور الوقت، إلى تجسد منظور يضغط على رأسه وأعصابه.. وقد جاء إلى هنا؛ لكي يتخلص من الثقل، من الإلحاح

المعذب، وإذ أصبح على بعد خطوات، نسي كل شيء.. أتراه لم يسمع من قبل رصاصاً ينطلق لكي يستقر في الأجساد مغيّباً في طيات اللحم الحار، متدثراً بحرارة الأنفاس الأخيرة المتشبثة بالحياة، مكتوماً في تلافيف الروح؛ التي استفزت فتحفزت لاحتواء المعدن القاسي الذي يضرب الإنسان بلا رحمة؟

لم تكن سوى لحظات، وجد نفسه يصيح عند حافتها الزمنية: آه.. إنه هاشم عبد السلام بعينه، يتهاوى قبالته تماماً عند عتبة الباب.. تسقط عمامته البيضاء الناصعة أولاً.. ثم يسقط هو بعدها يشخب دماً..

وصاح حنا مرة أخرى وهو يعاني من عذاب يصعب وصفه: آه.. لقد فاتتني الفرصة، ولكن، بعد أن أصبحت على بعد خطوة واحدة فحسب من الهدف، فلماذا يا إلهي؟!

وانحنى قليلاً، والمسدس العتيق يرتجف بيده اليمنى.. لا.. إنه هاشم بكل تأكيد.. لكن، أما كان عليهم أن ينتظروا قليلاً لكي يمنحوني الفرصة ويدعوني أرتاح؟

كان هاشم قد هوى على صدره، وامتدت يده لكي تمسك بالعمامة، ولكنها ما لبثت أن تراخت.. بعدها، رآه حنا جيداً وهو يختلج، ويكافح لكي ينقلب على ظهره، وقد تمكن ـ أخيراً ـ من تحقيق أمنيته.. فارتاح..

انكب حنا أكثر لكي يعاين وجهه، كانت اثنتان من الرصاصات الثلاث قد حفرتا في جبهته ثغرتين، وكان الدم لا يزال يتدفق منهما نقياً، حاراً، قانياً.. نقطة. جانباً من الوجه والذقن لكي يستقر على اللحية السوداء القصيرة، ومن هناك، كان يعانق الأرض نقطة.. نقطة..

وعجب حنا كيف يقدر رجل ميت على أن يبتسم.. وقال في نفسه مرة أخرى: إنه هاشم بكل تأكيد..

ركز نظره أكثر، وهو يشعر أنه يقف على حافة عالم لا يعرف عنه أيما شيء، وقال في نفسه: ها هو ذا.. أخيراً.. ولكن، لماذا تغمر الطمأنينة والرضا وجهه؛ الذي يسيل دماً؟

زحف بنظره قليلاً صوب الجسد.. رصاصة أخرى كانت قد استقرت بين القلب والضلوع.. وها هي ذي الثغرة التي أحدثتها.. نافورة الدم؛ التي تنبجس على دفعات..

ومضى حنا يزحف بنظره على الجسد المستلقي أمامه.. ها هي ذي اليد اليسرى تلم أصابعها، وتطويها إلى الداخل بعنف، وكأنها تتهدّد، كما كانت تفعل من قبل زمن الخطب الملتهبة ناراً.. أمابأس. اليمنى، فقد لمَّت أصابعها هي الأخرى، ولكن باسترخاء عجيب، بينما انطلقت السبابة من أسر القبضة، لكي ترتفع قليلاً، وبزاوية مائلة، صوب السماء..

وشعر حنا بأن (هاشم) يتحداه مرة أخرى.. لا بأس.. قال في نفسه.. وبحركة عصبية ونظرات تقطر غيظاً، تقدم لكي يكون بجوار هاشم تماماً.. ومن أجل أن يشرك الآخرين معه، هؤلاء المتكوّمين إلى جواره، ينظرون فقط دون أن يقولوا شيئاً.. من أجل أن يجعلهم يعرفون أنه ليس شخصاً عادياً مثل أي واحد منهم، وأنه لا يقل عن أولئك الجالسين في الغرفة اليمنى، أولئك الذين أصدروا ـ قبل لحظات ـ حكم الإعدام على غريمه، ونفذوه بسرعة مدهشة.. من أجل أن يتبين لهم كم أنه مهم، وأنه ما جاء لكي ينظر مثلهم فحسب..

طوح بقبضته في الهواء، وصرخ وجسده يهتز، محاولاً أن يدفع بصوته إلى أبعد نقطة يقدر على بلوغها:

ـ سحقاً للخونة.. والمجد للزعيم!

ورآهم جيداً وهم يتحركون.. يتجاوزون سكونهم والتصاقهم بالأرض، وينتشرون. هنا وهناك.. بل إنه سمعهم جيداً وهم يرددون نداءه!!

اعترته موجة حماس لم يذق طعمها من قبل، وصرخ مرة أخرى، فرددوا صراخه بقوة أشد هذه المرة!

كان حينذاك، يحس بنشوة عارمة اختلج لها جسده النحيل. وقال كذلك، وهو يرتجف: لست وحدك يايونس. سوف تخرج وسوف تراني.. وقال كذلك: لن تتحداني يا هاشم بعد اليوم، وسوف أُمَرِغ أنفك بالتراب..

رفع قدمه اليمنى قليلاً، ووضعها ببطء على وجه هاشم، وراح يدعك بحذائه الأسود الملطخ بالوحل اللحية التي تقطر دماً..

وما لبث أن استدار لكي يقف وراء الجسد الملقى.. لعله كان يريد أن يمنح الجماهير المحيطة به فرصة أكبر لرؤيته بوضوح..

كان حذاؤه الملطخ بالوحل لا يزال يدعك بعصبية لحية هاشم عبد السلام..

انتهت

الموصل: عماد الدين خليل

آذار ١٩٨٤م

فهرس الموضوعات

